الجمهورية الجزائرية الديمقراطية الشعبية

وزارة التعليم العالي والبحث العلمي

جامعة محمد بوضياف –المسيلة-

كلية العلوم الانسانية والعلوم الإجتماعية

قسم الفلسفة

العنوان :

فلسفة التاريخ عند مالك بن نبي

مذكرة مكملة لنيل شهادة الماستر في الفلسفة

إعداد الطالبة:

بلبول عقيلة

إشراف الأستاذ:

بوراس يوسف

السنة الجامعية: 2017/2016

شكرا وتقديرا

أشكر المولى عز وجل وأحمده حمدا كثيرا طيبا مباركا ملئه السموات والأرض وما بينهما،

وأصلي وأسلم على سيد الخلق أجمعين محمد الأمين.

قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: "**لا يشكر الله من لا يشكر الناس**" . من هنا لا يسعني

إلا أن أتقدم بالشكر الجزيل إلى الأستاذ الكريم: بوراس يوسف الذي أشرف على عملي هذا

بصدر رحب، وكان بهذا نعم المرشد

كما أشكر جميع أساتذة قسم الفلسفة بجامعة محمد بوضياف

كما أشكر عائلتي الكريمة التي علمتي للوصول إلى هذا المقام

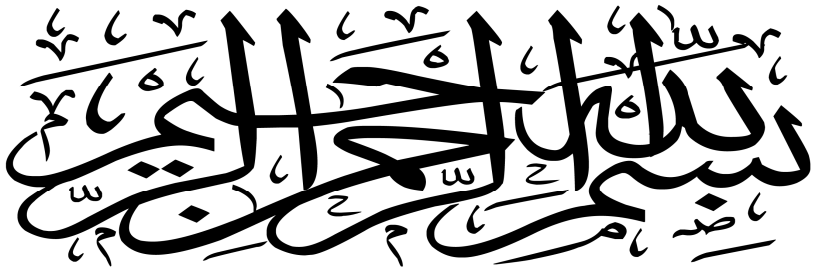

﴿ٱلرَّحۡمَٰنُ ۝١ عَلَّمَ ٱلۡقُرۡءَانَ ۝٢ خَلَقَ ٱلۡإِنسَٰنَ ۝٣ عَلَّمَهُ ٱلۡبَيَانَ ۝٤ ٱلشَّمۡسُ وَٱلۡقَمَرُ بِحُسۡبَانٖ ۝٥ وَٱلنَّجۡمُ وَٱلشَّجَرُ يَسۡجُدَانِ ۝٦ وَٱلسَّمَآءَ رَفَعَهَا وَوَضَعَ ٱلۡمِيزَانَ ۝٧﴾ سورة الرحمان الآية 1-7.

الإهداء

أهدي هذا العمل إلى فلذة كبدي وقرة عيني وثمرة وجوي ربيع قلبي : ولدي الحبيب عمر

إلى منع الحنان وحضن الأمان جدتي الغالية (بغدادية)

إلى رفيقة الوجدان وريحانة القلب سليمة الحبيبة الحنونة

إلى الخال الغالي عمر، وإلى والديا الكريمين

إلى كل أخواتي وإخوتي وكل الأهل والخلان

إلى صديقتي إيمان وحبيبة.

مقدمة

مقدمة:

بسم الله الرحمان الرحيم وبه نستعين، والصلاة والسلام على أشرف المرسلين سيدنا ونبينا وحبيبنا خير الخلق أجمعين. أما بعد:

يعد موضوع فلسفة التاريخ من بين الموضوعات التي نالت اهتمام المفكرين والفلاسفة والمؤرخين خاصة المؤرخ المغربي عبد الرحمان ابن خلدون الذي يعتبر من الذين اهتموا بحركة التاريخ من خلال مقدمته وهذا من أجل فهم العلل التي تتحكم في ميلاد الحضارات وتطورها ثم انهيارها، وهذا لاستخلاص القوانين العامة التي تتحكم في سير حركة الحضارة في التاريخ.

ولعل من أبرز الدراسات التي ظهرت في هذا الصدد في القرن العشرين في العالم الغربي: دراسة اشبنجلر في كتابه المتميز (تدهور الحضارة الغربية)، والمؤرخ الانجليزي توينبي في كتابه (دراسة مختصر التاريخ).

وإلى جانب هؤلاء نجد المفكر العربي الجزائري المسلم مالك بن نبي، الذي تندرج كل كتبه تحت عنوان مشكلات الحضارة.

أهمية البحث وأسباب اختياره: لقد وقع اختياري على الموضوع (فلسفة التاريخ عند مالك بن نبي) ليكون مجال بحثي ودراستي في مرحلة ماستر (فلسفة عامة) وذلك راجع لعدة أسباب:

أ- يمثل بن نبي رمز التحدي بحق لمواجهة الفكر الغربي، وذلك من خلال معاناته وإرادته وصبره في الحياة فهو رائد الحضارة وفيلسوف التاريخ.

ب- بالرغم ما يتمتع به مالك بن نبي من زخم معرفي إلا أنه لم يحض بالقدر الكافي في لاهتمام بأفكاره.

ج- إن المغزى من رسالة مالك بن نبي الاستفادة والاقتداء بأفكاره، وكذلك من بين أسباب اختيارنا لهذا الموضوع معرفة تفسير بن نبي لتطور المجتمعات ودورة التاريخ.

وانطلاقا من هذه المعطيات فإن الاشكالية الكبرى للبحث تتمحور حول ما طبيعة حركة التاريخ عند مالك بن نبي؟ وتندرج تحتها التساؤلات الآتية:

ما هو مفهوم وفلسفة التاريخ؟ وما هي التفسيرات التاريخ الحضارية السابقة عن مالك بن نبي؟ وماهي طبيعة الدورة الحضارية وعناصرها؟ وما هو مفهوم التاريخ والحتمية التاريخية عنده؟ وما هي مراحل الحضارة ومشكلاتها؟ وكيف فسر تطبيقات دراسته للتاريخ على الحضارتين الإسلامية والمسيحية الغربية؟

وللإجابة عن هذه الإشكالية والتساؤلات اعتمدت على المناهج التالية:

- المنهج الوصفي الذي يصف لنا الحضارة عند مالك بن نبي بكل مراحلها .
- المنهج التاريخ لتتبع الظروف التي مر بها بن نبي في مشروع حياته.
- المنهج التحليلي لتحليل أفكار مالك بن نبي.

والخطة المعتمدة: في هذا البحث كانت على النحو التالي:

مقدمة، وثلاثة فصول وخاتمة: المقدمة : تتضمن أهمية البحث وسبب اختيار دراسته، والمنهج الذي يسير عليه الباحث خلال دراسته، قمنا بتقسيم البحث إلى ثلاثة فصول بحيث تناولنا في الفصل الأول: خلفيات بن نبي الفكرية وقد تعرضنا في المبحث الأول إلى مفهوم الحضارة وفلسفة التاريخ والمبحث الثاني العوامل المؤثرة. أما المبحث الثالث كان بعنوان: تفسيرات التاريخ الحضارية السابقة عن بن نبي نماذج: ابن خلدون واشبنجلر وتوينبي.

أما الفصل الثاني: كان معنونا بـ: التفسير الحضاري للتاريخ عند المفكرنا وقد تطرقنا في المبحث الأول: عن التاريخ والحتمية التاريخية عنده، ثم المبحث الثاني: طبيعة الدورة الحضارية في التاريخ ومشكلاتها وفيه فصلنا أطوار الحضارة ومشكلاتها.

أما الفصل الثالث كان معنونا بـ: تطبيقات نظرية مالك بن نبي في فلسفة التاريخ وفيه تطرقنا إلى مراحل الحضارة الإسلامية وتطور المجتمعات عند مفكرنا، ثم المبحث الثاني: الحضارة المسيحية وفيه تطرقنا إلى مراحل الحضارة المسيحية والمركزية العالمية للحضارة الغربية، أما المبحث الثالث: بعنوان مالك في الميزان وفيه تقويم ونقد الإطار الحضاري لمفكرنا.

وقد اعتمدنا على جملة من المصادر والمراجع وهي ضرورية لدراستنا، خاصة كتاب شروط النهضة، وميلاد مجتمع، بالإضافة إلى مذكرات تخرج في فكر بن نبي.

وككل باحث أكاديمي قد واجهتني عدة صعوبات لإنجاز بحثي هذا وقد حاولت تجاوزها قدر المستطاع:

- صعوبة ضبط فلسفة التاريخ عند مالك بن نبي وهذا ما جعلني أجد صعوبة في تحديد المفهوم بدقة.
- تشعب الموضوع واتساعه الأمر الذي حيرني هو التداخل بين فلسفة الحضارة وفلسفة التاريخ عند مالك بن نبي.
- لذلك صعوبة التوفيق بين مزاولة الدراسة وظروف أسرتي كوني أماً.

الفصل الأول :

خلفيات مالك بن نبي الحضارية:

المباحث :

- مفهوم الحضارة و فلسفة التاريخ
- العوامل المؤثرة في توجه واهمام بن نبي الحضاري
- تفسيرات التاريخ الحضارية السابقة عن بن نبي (نماذج)

الفصل الأول: خلفيات بن نبي الحضارية

نحاول في هذا الفصل قدر الإمكان أن نلقي لمحة عن بعض المفاهيم المفتاحية التي بدورها تساعدنا عن فهم ما سوف نتطرق إليه فيما بعد عن تفسير مسار حركة التاريخ عند فيلسوف الحضارة مالك بن نبي* منها الحضارة والتاريخ ومفهوم فلسفة التاريخ ثم حاولنا كذلك في هذا الفصل أن نلقي نضرة عن بعض تفسيرات التاريخ الحضارية السابقة عن بن نبي التي أثرت في فكره ولعبت دور المنبه فاخترنا ثلاثة نماذج.

مرورا بالمحطات التي مر بها مالك بن نبي في مسيرته الفكرية والتي كانت حافلة بالمآسي من خلال العيش بالجزائر في الظروف الاستعمارية، وتنوع القراءات العربية والغربية التي كانت بمثابة المحفز لوعي مفكرنا وتوجيه اهتمامه لمشكلات الحضارة التي شغلت فكره والتي وضعها الأساس في جل كتاباته والتي عد بها فيما بعد برؤية جديدة وقفزة نوعية لمشكلات الحضارة والبناء الحضاري.

* – مالك بن نبي: مفكر جزائري ولد سنة 1905 بمدينة قسنطينة وتوفي في 30 أكتوبر 1973، وبعد ولادته انتقلت أسرته إلى مدينة تبسة حيث كان والده يعمل موظفا إداريا، وأمه كانت تشتغل بالخياطة، عاش طفولته في جو ديني حيث كان يتردد على الكتاب لتعلم القرآن الكريم، وفي نفس الوقت كان يدرس بالمدرسة الابتدائية حيث كان متفوقا، وبعدها انتقل إلى التعليم الثانوي، بمدينة قسنطينة، تعلم من الثقافتين الإسلامية والغربية، وقد كان ذلك نتيجة الثقافة بالمدرسة القرآنية وكذلك بالمدرسة الفرنسية، أنظر: مذكرات شاهد القرن الطفل والطالب' إشلاف ندوة مالك بن نبي، دار الفكر، دمش، سورية، ط3، 1993، ص 15-17.

المبحث الأول: مفهوم الحضارة ومفهوم فلسفة التاريخ.

أولا: الحضارة لغة واصطلاحا

1. مفهوم الحضارة

الحضارة في اللغة الفرنسية Civilisation

الحضارة في اللغة الانجليزية Civilization

لغة: الحضارة في اللغة العربية هي الإقامة في الحضر بخلاف البداوة وهي الإقامة في البوادي، قال القطامي: " **ومن تكن الحضارة أعجبته فأي رجال بادية ترانا**".[1]

وجاء في تاج العروس: " **الحضر محركة، والحضرة بفتح فسكون والحضارة بالكسر الإقامة في الحضر- قاله أبو زيد –**" وكان الأصمعي يقول: " **الحضارة بالفتح –الحاضر والحضرة الحضر- هي المدن والقرى والريف، سميت بذلك لأن أهلها حضروا الأمصار، ومساكن الديار التي يكون لهم بها قرار، والبادية يمكن أن يكون اشتقاقها من بدا يبدو أي برز وظهر، ولكنه اسم لزم ذلك الموضع خاصة دون سواه**".[2]

والحضارة لغة بفتح الحاء وكسرها، تعني الإقامة في الحضر، وأن مظاهر الرقي العلمي والفني والأدبي والاجتماعي في الحضر.

---

[1]- جميل صليبا: المعجم الفلسفي، دار الكتاب اللبناني، بيروت، لبنان، ج 1، 1982، ص 475.

[2]- حسن محمد العقبي: مالك بن نبي وموقفه من القضايا الفكرية المعاصرة، رسالة ماجستير، الجامعة الإسلامية، كلية أصول الدين، غزة، 2005، ص 48.

الحاضرة والحضرة والحضر هي المدن والقرى والريف وسميت بدلك لأن أهلها حضروا الامهار ومساكن الديار التي يكون لهم بها قرار.[1]

ومع أن استعمال هذا اللفظ قديم- فإنه أول من أطلق على معنى قريب من معناه الحاضر هو ابن خلدون*- ففرق في مقدمته بين العمران البدوي والعمران الحضري وجعل أجيال البدو والحضر طبيعية في الوجود فالبداوة أصل الحضارة، والبدو أقدم من الحضر لأنهم يقتصرون على انتحال الزراعة والقيام على الحيوان لتحصيل ما هو ضروري لمعاشهم أما الحضر فإن انتحالهم للصنائع والتجارة يجعل مكاسبهم أكثر من مكاسب أهل البدو، وأحوالهم في معاشهم زائدة على الضروري منه، وإذا كانت البداوة أصل الحضارة فإن الحضارة غاية البداوة ونهايتها.[2]

أما المعنى الموضوعي فلفظ الحضارة يطلق على كل مظاهر التقدم والتطور في شتى المجالات الأدبية والعلمية والفنية والتقنية فتنتقل من جيل لآخر في نفس المجتمع أو في مجتمعات متشابهة ولكل حضارة حدودها الجغرافية وطبقاتها ولغاتها، أما مفهومها بالمعنى الذاتي فتطلق على أرقى مرحلة من مراحل التطور الإنساني بل تطلق على الصورة الغائية التي تحدد أرقى صفات الفرد أو المجتمع بحسب قربها من هذه الصورة أو بعدها بالرغم من اختلاف الصورة الغائية من زمان لآخر تبقى مشتركة في عناصر واحدة فتشكل العناصر المشتركة بين الحضارات.[3]

---

[1]- العابد ميهوب: الفكر التربوي عند مالك بن نبي، رسالة دكتوراه، جامعة محمد خيضر، كلية العلوم الاجتماعية والإنسانية، بسكرة 2014، ص 144.

*-ابن خلدون: (1332- 1406) ولد عبد الرحمان أبو زيد ولي الدين ابن خلدون بتونس، درس العلوم الدينية واللغوية والفلسفية والطبيعية والرياضية تولى وظائف حكومية، أنظر: فؤاد كامل وآخرون: الموسوعة الفلسفية المختصرة، دار القلم، بيروت لبنان، ص 14.

[2]- جميل صليبا: المعجم الفلسفي، مرجع سابق، ص 475.

[3]- نفسه، ص 476.

والحضارة بمعنى ما مرادفة للثقافة، إلا أن هذين اللفظين لا يدلان عند العلماء على معنى واحد، فبعضهم يطلق لفظ الثقافة على تنمية العقل والذوق وبعضهم يطلقه على نتيجة هذه التنمية أي مجموع عناصر الحياة وأشكالها ومظاهرها في مجتمع من المجتمعات، وكذلك لفظ الحضارة فإن بعضهم يطلقه على اكتساب الخلال الحميدة، وبعضهم يطلقه على نتيجة هذا الاكتساب أي حالة من الرقي والتقدم في حياة المجتمع بكاملها.[1]

ولفظ الثقافة يدل عند علماء الأنثرولوجيا* على مظاهر الحياة لكل مجتمع متقدم كان أو متخلف، على حين أن لفظ الحضارة عندهم يدل على مظاهر هذه الحياة في المجتمعات المتقدمة وحدها وخير وسيلة لتحديد معنى هذين اللفظين إطلاق لفظ الثقافة على مظاهر التقدم العقلي وحده ، وهي ذات طابع فردي وإطلاق لفظ الحضارة على مظاهر التقدم العقلي والمادي معا، وهي ذات طابع اجتماعي.[2]

والحضارة هي الحالة المقابلة للبداوة، تطلق على جملة من مظاهر التقدم الأدبي والفني والعلمي والتقني، التي تنتقل من جيل إلى جيل في مجتمع واحد أو عدة مجتمعات متشابهة، نقول الحضارة الصينية والحضارة العربية والحضارة الأوربية.

عند فرويد هي جملة الإنجازات والقواعد التي تميز حياتنا من حياة أسلافنا الحيوانات والتي تنشد تحقيق غرضين: حماية الإنسان من الطبيعة وتأسيس علاقات متبادلة بين الإنسان وأخيه الإنسان.[3]

---

[1]– جميل صليبا: المعجم الفلسفي، مرجع سابق، ص 477.

*– الأنثرولوجيا: اتجاه في الفلسفة البورجوازية بالقرن العشرين (شيلر، غيهلين، روتهاكر) يعتمد على هذه أو تلك من سمات الإنسان لتحديد أسلوب طرح كافة القضايا الفلسفية وحلها .

[2]– جميل صليبا: المعجم الفلسفي، مرجع سابق، ص 477.

[3]– مراد وهبة: المعجم الفلسفي، دار قباء الحديثة، مدينة نصر، القاهرة، 2007، ص 280.

ويعود أصل الكلمة الأوربية Civilisation إلى الجذر اللاتيني Civites بمعنى مدينة وCivis بمعنى ساكن المدينة أو Cvilis بمعنى مديني أو ساكن المدينة، أو Citizen وهو ما يعرف بالمواطن الروماني المتعالي على البربري ولم يشتق منها إلا في القرن الثامن عشر من مصطلح Civilization وقد ثبت أنه كان للكلمة في البداية ولمدة تقرب من الخمسين سنة بعد ذلك مختلف عن المعاني التي ساعد شبنجلر وأرنولد توينبي وآخرون على منحها لها.[1]

ويستعمل في بعض الأحيان مصطلح Culture كمرادف لمصطلح الحضارة وقد أخذ هذا في تشعبات كبيرة على مستوى الاصطلاح والاشتقاق اللغوي، فعلى المستوى اللغوي تعني حرث الأرض وزراعتها، وبقيت هذه اللفظة مقترنة بهذا المعنى طوال العصرين اليوناني والروماني، حيث استخدمها " شيشرون" للدلالات نفسها وقد أطلق على الفلسفة Mentiscultur أي زراعة العقل وتنميته[2].

ثانيا: الحضارة اصطلاحا

وبقى المصطلح نفسه إلى القرون الوسطى، حيث أطلقت في فرنسا على الطقوس الدينية Cultes، وفي عصر النهضة اقتصر مصطلح Culture على مدلوله الفني والأدبي واستمرت الكلمة محافظة على جذورها اللغوي، والدلالات المشتقة منه أن جاء (ادوارد تايلور[3]) ووضع تعريف لهذا المفهوم يعد حتى اليوم من أوفى التعريفات وأشملها بحيث لا يزال يستخدم في معظم الكتابات الأنثرولوجية والذي يعرفها بأنها " ذلك الكل المركب الذي

---

[1]– العابد ميهوب: الفكر التربوي عند مالك بن نبي، المرجع السابق، ص 145.

[2]– نفسه الصفحة نفسها.

[*]– ادوارد تايلور: ألفرد ادوارد تايلور (1869– 1945) فيلسوف بريطاني درس الفلسفة في جامعة أكسفورد، كان زميل برادلي، كتاباته الأولى حول: مشكلة السلوك، مبادئ الميتافيزيقا، أصبح أستاذ الفلسفة الأخلاقية في جامعة سانت أندروز ثم أدنبرة، أهم مؤلفاته: أفلاطون: الرجل وعمله). أنظر: فؤاد كامل وآخرون: الموسوعة الفلسفية المختصرة، ص 160.

يشمله المعرفة والعقائد والفن والأخلاق والقانون والعرف وكل القدرات والعادات الأخرى التي يكتسبها الإنسان من حيث هو عضو في المجتمع"[1].

لكن بعض العلماء يميزون بين المدنية وحضارة فيجعلون لفظ المدينة يعد الجانب المادي في الحضارة، ولفظ الحضارة خاصا بالمجتمع بالجانبين التكوينيين الثقافي والمعنوي.

يكاد ابن خلدون أن يكون أول من بثه إليها واستخدمها في (مقدمته) إلا أن اصطلاحه الأثير الذي كان يستغني به معظم الأحيان عن هذه الكلمة هو (العمران البشري) الذي يقابل (الحضارة البشرية).[2]

الحضارة عند ابن خلدون: " الحضارة إنما هي تفنن في الترف وإحكام الصنائع المستعملة في وجوهه ومذاهبه، من المطابخ والملابس والمباني والفرش، وسائر عوائده وأحواله، فلكل واحد منها ضائع في استجادته والتأنق فيه".[3]

ومفهوم الحضارة عند سيد قطب، يقوم على العقيدة الإسلامية التي تعمل على التحرر الحقيقي الكامل للإنسان، وتوجد الكرامة المطلقة لكل فرد في المجتمع وذلك عن طريق تحقيق الحاكمية العليا في المجتمع له وحده. وتحقيق العبودية له وحده، والتجمع على أساس هذه العقيدة، واستعلاء إنسانية الإنسان على المادة، وسيادة القيم الإنسانية التي تنمي إنسانية الإنسان لا حيوانيته وتقيم الخلافة في الأرض على عهد الله وشرطه، ويمكن أن تتخذ الحضارة أشكالا متنوعة في تركيبها المادي والتشكيلي، ولكن الأصول والقيم التي تقوم عليها ثابتة لأنها هي مقومات الحضارة.[4]

---

[1]– العابد ميهوب: الفكر التربوي عند مالك بن نبي، المرجع السابق، ص 145.

[2]– عماد الدين خليل: التفسير الإسلامي للتاريخ، دار العلم للملايين، بيروت لبنان، ط5، 1991، ص 174.
أنظر: فؤاد كامل وآخرون: الموسوعة الفلسفية المختصرة، دار القلم، بيروت، لبنان، ص 160.

[3]– نقلا: حسن موسى محمد العقبي: مالك بن نبي وموقفه من القضايا الفكرية المعاصرة، مرجع سابق، ص 48.

[4]– نفسه، ص 49.

من هذا لم يتفق الباحثون والمفكرون على تعريفا محدد للحضارة وكذلك مفهوم الحضارة عند حسين مؤنس* " الحضارة في مفهومها العام هي ثمرة كل جهد يقوم به الإنسان لتحسين ظروف حياته، سواء أكان المجهود المبذول للوصول لتلك الثمرة مقصودا أم غير مقصود، وسواء أكانت الثمرة مادية أم معنوية"[1].

وهذا المفهوم للحضارة مرتبط أشد الارتباط بالتاريخ، لأن التاريخ كما سنرى هو الزمن، والثمرات الحضارية التي ذكرناها تحتاج إلى زمن لكي تطلع أي أنها جزء من التاريخ أو نتاج جانبي للتاريخ، وكما أن ثمر الزروع والأشجار لا يطلع إلا بفعل الزمن، إذ لا يمكن أن تزرع أو تحصد ثمرة ما في نفس الوقت، فإن ثمار الحضارة لا تظهر إلا بإضافة الزمن إلى جهد الإنسان. [2]

ومن هذا التعريف يتضح لنا أن التاريخ والحضارة مرتبطان أشد الارتباط ولا يستطيع الإنسان التحدث عن الحضارة دون التاريخ والعكس صحيح فهما يصبان في نفس القالب.

كذلك جاء مفهوم الحضارة عند مالك بن نبي بعد مناقشات كثيرة لفلاسفة الحضارة والتاريخ وعلى رأسهم توينبي وابن خلدون وغيرهم من فلاسفة التاريخ في العصر الحديث والمعاصر، وتوصل بعد الدراسة والبحث إلى نظرية مفادها أن الحضارة، تصنعها ظروف ومعطيات كثيرة تتداخل وتنسجم فيما بينها، لكنها مختلفة في كتبه بحسب الموضوع الذي يبحث فيه، لذا اعتمد بن نبي في تعريفه للحضارة على منهجين أحدهما تحليلي تركيبي وآخر وظيفي.

---

* – حسين مؤنس ( ): تخرج من كلية الآداب، جامعة القاهرة، عام 1934 ونال درجة دكتوراه في التاريخ الإسلامي من زيوريخ 1934، تدرج وظائف هيئة التدريس بجامعة القاهرة، عين أستاذ التاريخ الإسلامي 1954، عين أستاذ تاريخ الإسلامي ورئيس قسم التاريخ بالكويت، عين مدير بمعهد الدراسات الإسلامية في مدريد 1957، أنظر: حسن مؤنس: الحضارة، ص 353.

[1] – حسين مؤنس: الحضارة (دراسة في أصول وعوامل قيامها وتطورها)، عالم المعرفة، الكويت، 1978، ص 13.

[2] – نفسه، الصفحة نفسها.

تعريف الحضارة من الناحية الوظيفية: يعرفها من وجهة وظيفية يقول " **فهي مجموع من الشروط الأخلاقية والمادية التي تتيح لمجتمع معين أن يقدم لكل فرد من أفراده في كل طور من أطواره منذ الطفولة إلى الشيخوخة، المساعدة الضرورية له في هذا الطور أو ذاك من أطوار نموه، فالمدرسة ، والمعمل، والمستشفى، ونظام شبكة المواصلات والأمن في جميع صوره عبر سائر تراب القطر، واحترام شخصية الفرد تمثل جميعها أشكالا مختلفة للمساعدة التي يريد ويقدر المجتمع المتحضر على تقديمها للفرد الذي ينتمي إليه".**[1]

من هذا فالباحث يعتقد بأن المجتمع له القدرة الامتداد في التاريخ وذلك لتحركه وأدائه وظيفته في مسيرة التاريخ من خلال انضباط الأفراد وأدائهم لوظائفهم، فالحضارة تمثل الجو الذي يوفي للفرد الأمن والحرية والسلام وكل ما يحفظ وجوده وحضوره وتحفظه من التدهور في مختلف المجالات.

ثانيا: مفهوم فلسفة التاريخ

مصطلح فلسفة التاريخ له شقين فلسفة وتاريخ إذا استعملنا منهج التحليل.

فأما الفلسفة لغة: Philosophie يدل اللفظ في الأصل اليوناني على محبة الحكمة.

اصطلاحا: أطلق قديما على دراسة المبادئ الأولى وتفسير المعرفة عقليا فتشمل عند أرسطو الفلسفة النظرية والعملية وقصرها الرواقيون على المنطق والأخلاق والطبيعة، أخذ بهذا المعنى في القرون الوسطى والتاريخ الحديث فيرى ابن سينا* أن الغرض من الفلسفة الوقوف على حقائق الأشياء كلها سواء أكان وجودها باختيارنا أم خارجا عن إرادتنا وهي

[1]– مالك بن نبي: القضايا الكبرى، دار الفكر، دمشق، سورية، ط2، 2000، ص 43.

*- ابن سينا: Ibn sina هو علي أبو الحسين بن عبد الله بن الحسن بن علي بن سينا اشتهر بالطب والفلسفة والأدب أفشته الفارسية عرف بالشيخ الرئيس وأمير الأطباء وأبو الطب الحديث ألف 450 كتاب من أبرز مؤلفاته الإشارات والتنبيهات، الشفاء، رسالة الزاوية. أبطال أحكام النجوم، أنظر: مصطفى حسيبو: المعجم الفلسفي، ص 19.

نظرية وعملية، ويخضع تحت النظرية الطبيعيات والرياضيات والإلهيات وتحت العملية تدبير المدنية وتدبير المنزل والأخلاق.[1]

أما التاريخ

نقلا عن المعجم الفلسفي "هو جملة الأحوال والأحداث التي يمر بها كائن ما وتصدق على الفرد، كما تصدق على الظواهر الطبيعية والإنسانية، وعد هيجل جزء من الفلسفة، لأنه ليس مجرد دراسة وصفية بل هو أقرب إلى التحليل وبيان الأسباب.[2]

ومن هذا التاريخ يعني كل شيء حدث في الماضي، بل هو الماضي أو ما نعرفه من هذا الماضي كما أنه هناك تاريخ للنبات وتاريخ للحيوان وتاريخ للأشياء فالتاريخ ليس وصفا للوقائع والأحداث بقدر ما هو إدراك للأسباب التي من أجلها حدثت هذه الوقائع.

وعن معجم صليبا: تاريخ Historia – History – Histoire التاريخ في اللغة تعريف الوقت، وتاريخ الشيء وقته وغايته، والتاريخ أيضا علم يبحث في الوقائع والحوادث الماضية، وحقيقته كما قال ابن خلدون: " خبر عن الاجتماع الإنساني الذي هو عمران العالم وما يعرض لطبيعة ذلك العمران من الأحوال، مثل التوحش والتآنس والعصيان، وأصناف التقلبات للبشر بعضهم على بعض وما ينشأ عن ذلك من الملك والدول ومراتبها، وما ينتحله البشر بأعمالهم ومساعيهم من الكسب والمعاش والعلوم والصنائع وسائر ما يحدث في ذلك العمران بطبيعته من الأحوال.[3]

ومن هذا يمكن القول أن التاريخ ليس عبارة عن سجل من الأحداث والوقائع والحقائق بقدر ما هو تعبير عن تجارب وخبرات حيوية حركية لأناس عاشوا في زمن ماضي لهم أغراضهم ومطالبهم.

---

[1]– إبراهيم مدكور: المعجم الفلسفي، الهيئة العامة لشؤون المطابع الأميرية، مجمع اللغة العربية، القاهرة، 1983، ص 140.

[2]– جميل صليبا: المعجم الفلسفي، ص 37.

[3]– جميل صليبا: المعجم الفلسفي، مرجع سابق، ص 227.

كما يعني التاريخ في اللغة العربية الإعلام والتوقيت، يقول السخاوي: " **إنه فن يبحث عن وقائع الزمان من حيث التعيين والتوقيت، وموضوعه الإنسان والزمان**".

وقد يعني أمجاد قوم فيقال فلان تاريخ قومه، وقد يعني تراجم الرجال ومن ذلك تاريخ الطبري، وابن أثير والذهبي. وفي اللغة اليونانية يعني التعلم أو المشاهدة، أي كل ما يتعلق بالإنسان منذ أن بدأ يترك أثاره على الأرض.[1]

ويرى بعض الكتاب أن التاريخ يشتمل على معلومات التي يمكن معرفتها عن نشأة الكون كله بما يحويه من أجرام وكواكب ومن بينها الأرض وما جرى على سطحها من حوادث الإنسان ويقصر أغلب المؤرخين معنى التاريخ على بحث واستقصاء حوادث الماضي.[2]

وقد تدل كلمة تاريخ على مطلق مجرى الحوادث الفعلي الذي يصنعه الأبطال والشعوب، والتي وقعت منذ أقدم العصور، واستمرت وتطورت في الزمان والمكان حتى الوقت الحاضر.[3]

من هذا توجد العديد من التعريفات على مر التاريخ بين مختلف المدارس والاتجاهات فهو حياة الشعوب وسجل الأحداث التي عاشها الإنسان منذ أن بدأ حياته على الأرض، فهو يسجل أحداث الماضي البعيد والقريب.

كما أن مصطلح فلسفة التاريخ Philosophie de l'histoire : كوحدة متكاملة هي البحث في المبادئ العامة التي تخضع لها تطور المجتمعات البشرية، وهي تعني بتفسير مجرى التاريخ على ضوء نظرية عامة، على أنه كل غير مقسم إلى أحداث وتضع لعلم التاريخ أساسا فلسفيا بتمحيص المنهج الذي يصطنعه المؤرخون وبمناقشة وتحليل المصادر

---

[1]– مراد وهبة: المعجم الفلسفي، مرجع سابق، ص 153.

[2]– عبد الحليم عويس: فلسفة التاريخ (نحو تفسير إسلامي للسنن الكونية والنواميس الاجتماعية) دار الصحوة، القاهرة، ط 1، 2011م، ص 09.

[3]– عبد الحليم عويس: فلسفة التاريخ، المرجع السابق، ص 10.

ودراسة مصطلحات المؤرخين ولعل القديس أغسطين* أول من فلسف التاريخ وإن طابعه بطابع ديني في مدينة الله[1].

قد عاصر أغسطين تدهور روما وحاول من خلال كتابه هذا التعليل والتحليل لذلك الحدث من خلال مزجه بالتفكير الديني وأرجع تلك المأساة والنكسة لعوامل خاصة وحاولا إعطاء التاريخ تفسيرا دينيا فلسفيا.

يرى الباحث أن منهج المفسر للتاريخ يمر بثلاث مراحل، المرحلة التسجيلية والمرحلة التأملية والتي تحلل الوقائع والأحداث ومرحلة تفسيرية فلسفية يخلص فيها المفسر إلى استخراج القوانين والسنن التي تحكم حركة التاريخ بمجتمعاته المختلفة وأن فيلسوف التاريخ هو الذي يكشف لنا فعل الإنسان على وجه الأرض من خلال حركته في الحياة يقول ابن خلدون "**إن عمل المؤرخ هو (ظاهر) التاريخ وعمل (المفسر) التاريخ هو باطنه، ويوضح لنا فلسفة التاريخ قبل العصر الحديث وبعده فقبل العصر الحديث: قد وفق ابن خلدون في تعريفه للتاريخ كوحدة متكاملة أقرب لتفسير أو فلسفة التاريخ من كون التاريخ ركن من أركان العملية التاريخية وهو الركن الظاهر أما ركن التفسير هو الركن الباطن**"[2]. أما فلسفة التاريخ في العصر الحديث تشير إلى جانبين مختلفين من جوانب دراسة التاريخ: الجانب الأول: فهو يتعلق بدراسة مناهج البحث من جهة النظر الفلسفية، أما الجانب الثاني فهو يبرز دور الفلسفة بوجه عام لدراسة التاريخ وهو مهمتها الرئيسية الأخرى.[3]

---

* – أغسطين: 354– 440 قديس يعرف باسم أوريلوس، وأغسطينوس، ولد بسوق هراس بالجزائر أصبح كاهنا عام 391، أهم مؤلفاته: الاعترافات ومدينة الله. أنظر: فؤاد كامل وآخرون: موسوعة فلسفية مختصرة، ص 88– 89.

[1] – إبراهيم مدكور، المعجم الفلسفي، مرجع سابق، ص 140.

[2] – نقلا عن: عبد الحليم عويس، فلسفة التاريخ، مرجع سابق، ص 11–12.

[3] – نفسه، ص 13.

إن تفسير التاريخ الذي هو محاولة فهم ما وراء الحركة الإنسانية من سببية وغائية، تحرك في الوعي البشري دائما، وظل ينمو حتى انتهت مراحل ولادته، فظهر علما مستقلا يفرض نفسه على علم التاريخ، كما يفرض الابن نفسه على أبيه، إن تفسير التاريخ هو ثمرة التاريخ في تفاعله مع حركة الكون والوعي الإنساني، وإن استمرار الإنسان في المعرفة لذاتها... أمر لم يكن ممكنا، فإن الإنسان حريص على أن يعرف الأسباب والعلل والغايات، ليستفيد من حركة الماضي شيئا لحركة المستقبل.[1]

من هذا فإن فلسفة التاريخ تعتبر علما مستقلا عن علم التاريخ بالرغم من أنه مرتبط به في تفاعل هذا الأخير التاريخ مع حركة الطبيعة والإنسان وذلك من خلال حرص الإنسان على معرفة الأحداث الماضية والاستفادة منها.

[1]– عبد الحليم عويس، فلسفة التاريخ، مرجع سابق، ص 44.

المبحث الثاني: العوامل المؤثرة في توجه ابن نبي الحضاري

إن توجه الإنسان يظهر من خلال شخصيته ولا يصل إليها إلا من خلال عوامل ومؤثرات منها يتحدد فكره وتوجهه فتعمل كل من البيئة الاجتماعية والتعليمية والسياسية... على صقل الشخصية، ويمكن الحديث عن بعض المرجعيات التي صقلت اتجاه مالك بن نبي منها معاناته في الحياة سواء داخل الوطن نعني به الجانب الأسري والبيئي الاجتماعي أو خارج الوطن ومعاناته من الاستعمار ومنه نستطيع ضم هذه العوامل في عاملين محفز عربي إسلامي ومحفز غربي.

1. المحفز العربي الإسلامي

ونعني بها جملة المرجعيات المستوحاة من المحيط العائلي والاجتماعي إضافة إلى المؤثرات الإسلامية ونقصد بها القراءات العربية الإسلامية الغريزة لمالك بن نبي

إن التنشئة الاجتماعية التربوية منها والإسلامية التي مر بها المفكر مالك بن نبي وعاشها وتأثر بها خاصة من محيطه العائلي من خلال القصص التي كانت ترويها الحاجة زليخة (جدته لأبيه) فكانت بمثابة المدرسة الأولى له وتأثيرها قوى من خلال الأقاصيص التي كانت ترويها عن جدته الكبرى والدتها (بايا) ومأساتها مع الاستعمار ولجوئها إلى تونس مع عائلتها يقول بن نبي: " **أن هذه المرأة (الجدة) كانت بارعة في قص الحكايات، إذ تشدنا إليها ونحن متحلقون حولها، كانت مدرستي، فيها تكونت مداركي**"[1] فالجدة زليخة شكلت له اللبنة الأولى نحو القيم الأخلاقية من البر والإحسان وحب الخير وعمله.

يقول بن نبي " **وفي ظهيرة يوم الجمعة أخذت نصيبي من الرفيس وأخذت أقضمه بنهم ولذة، وفجأة سمعت بباب الدار سائلا ينادي " أعطوني من مال الله" ولم أكن عندها**

[1]– مالك بن نبي: مذكرات شاهد القرن، مصدر سابق، ص 16.

أكلت فطيرتي أكثر من النص، ومع ذلك بادرت بإعطائها له عندما تذكرت واحدة من حكايات جدتي عن الإحسان وثوابه"[1] وهنا يظهر تأثير الجدة.

وكذلك يقول " **بعد ربع قرن من هذا الحادث وكنت قد أصبحت رجلا أخذت أدرك إلى أي مدى كنت مدينا لتلك الجدة العجوز**".[2]

كذلك تأثير جده لأبيه ترك في نفسية مالك انطباعا قويا وبغضه للاستعمار من خلال هجرة الجد إلى ليبيا ورفضه لمعايشة الاستعمار وكذلك تأثير والديه وحرصهم على مزاولته الدراسة سواء في المدرسة الفرنسية أو في الكتاب لتكوينه تكوينا دينيا، فقد اضطرت أم مالك بن نبي لأن تدفع سريرها الخاص (السدة) لمعلم القرآن الذي يتولى تدريس إبنها بدل المال يقول: " **لا أزال أذكر كيف أنها اضطرت ذات يوم لكي تدفع لمعلم القرآن الذي يتولى تدريسي، بدل المال، سريرها الخاص**".[3]

وعن التأثير الإسلامي والعربي: ما تلقاه في صباه ففي (مدرسة إعداد المعلمين): من خلال التوجيه الذي أرادته عائلة مالك بأن يكون عدلا في الشرع الإسلامي تتلمذ على يد الشيخ (عبد المجيد) وهو معلم في معهد تكوين المعلمين فكان يعطي دروسه في النحو كل صباح في المسجد وملاحظته لعداءه لبعض التقاليد السائدة في المجتمع الإسلامي وكراهيته لتجاوزات الإرادة الفرنسية فتلقى مالك بن نبي أول أسس الثقافة العربية سنة 1920 بكونه أستاذ قواعد اللغة العربية.[4]

---

[1]- مالك بن نبي: مذكرات شاهد القرن، مصدر سابق، ص 19.

[2]- نفسه ، ص 20

[3]- نفسه ص 19.

[4]- نفسه، ص 48- 51.

وكذلك مولود بن موهوب: هو أستاذ التوحيد والسيرة النبوية الشريفة، وهو مفتي مدينة قسنطينة وهو من أبرز المعلمين تأثيرا في فكر مالك يقول مالك: " **وقد استطاعت الدروس ذاتها خاصة مع أستاذنا العرب أن تنمي فينا هذه الروح وتغذيها، وكنا نجد شيئا ما أكثر لدى الشيخ (مولود بن موهوب) الأستاذ في المدرسة والمفتي المدينة حيث جذب أفكار تلاميذه وعقولهم فكان إصلاحيا وذلك لتأثره بشيخه (عبد القادر المجاوي) وزرع تلك الأفكار التي تلقاها عن شيخه في الأجيال اللاحقة منهم بن نبي**".[1]

الشيخ بلعابد: هو أستاذ الشريعة في معهد تكوين المعلمين الذي كان له الفضل لعدم وقوع مالك في مغريات ومتاهات الفكر الغربي.

وكذلك قد ساعده على فهم الأحاديث والآيات القرآنية من خلال حواراته ونقاشه مع حمودة بن ساعي* الذي كان يحضر لدكتوراه في جامعة السوربون لأبي حامد الغزالي فكان أول مؤلفاته " الظاهرة القرآنية " وذلك لاطلاعه الواسع للتاريخ الإسلامي ويرجع الفضل لصديقه بن ساعي يقول مالك: " **وهذه المحاورات مع ابن ساعي هي التي حولت اتجاهي ككاتب متخصص في شؤون العالم الإسلامي**"[2] لقد ساهم حمودة بن ساعي في بناء بن نبي فكريا منذ أن تعرف عليه.

كان مالك على اتصال بالحركة الإصلاحية في قسنطينة والتي كان لها الأثر البالغ في فكر وتوجه مالك بن نبي خاصة منهم الشيخ سليمان الذي يعرف مالك بخططه الإصلاحية التي أرست الإصلاح في الروح التبسية وبفضل هؤلاء المصلحين شكلوا مركزا ثقافيا لتحفيظ القرآن في سيدي السعيد أو سيدي عبد الرحمان وكذلك تأثره ببعض تلامذة الشيخ بن باديس

---

[1]– مالك بن نبي: مذكرات شاهد القرن، الطفل والطالب، مصدر سابق، ص 64– 65.

*– حمودة بن ساعي: ولد 1902 بباتنة، درس في الكتاتيب، تتلمذ عن ابن باديس، رحل إلى باريس، دخل في جامعة السوربون في فرنسا في قسم الفلسفة، توفي 1998. أنظر: العابد ميهوب: الفكر التربوي لمالك بن نبي، ص 69.

[2]– نفسه، ص 235.

وهو الطيب العقبي الذين دافعوا عن الإسلام وكانوا ضد البعثات التبشيرية الانجليزية يقول: " **لقد شعرت بأنني وهؤلاء في اتجاه فكري واحد**"[1] لقد أيد مالك جمعية العلماء وكان معهم في الإصلاح ولكن اختلف معهم فيما بعد.

القراءات العربية: كان لفضل قراءاته المتنوعة واطلاعه الواسع أثر واضح منها كتابي (الإفلاس المعنوي للسياسة الغربية في الشرق لأحمد رشيد رضا وكتاب رسالة التوحيد لمحمد عبده) حيث يقول مالك: " **كان آخر هذه المؤثرات كتابان عثرت عليهما في مكتبة النجاح الينابيع البعيدة والمحددة لاتجاهي الفكري أعني بذلك كتاب (الإفلاس...)**".[2]

وقد قرأ كتاب طبائع الاستبداد لعبد الرحمان الكواكبي وكتاب أم القرى الذي قرأه في ليلة واحدة وعرف من خلاله كيف أن الإسلام ينظم صفوفه ليدافع عن نفسه[3] وكذلك طالع كتب أخرى منها النظرات والعبرات وكذلك (مقدمة) ابن خلدون والتي كان لها أثرها البالغ.

قد كان لدور الصحافة أثر كبير في تكوين بن نبي فكريا وتطلعاته الواسعة والمتنوعة للصحف والمجلات العربية التي كانت تنشرها الأحزاب السياسية مثل جريدة الأقدام للأمير خالد و"الإنسانية" التي تصدر عن الحزب الشيوعي، و"الشهاب" التي كان يصدرها عبد الحميد بن باديس والتي كانت تعرقل الإدارة الفرنسية وصولها إلى فرنسا يقول بن نبي: " **والواقع أن صحيفة الإقدام للأمير خالد والراية لدندن قد أوجدتا في ذهني حساسية خاصة نحو هذا النوع من المشكلات**"[4]. كان يتردد لعدة مكتبات منها مكتبة النجاح لكي يتعرف على ما جد من نتاج الأدب العربي .

---

[1]– مالك بن نبي: مذكرات شاهد القرن، مصدر سابق، ص 74– 80.

[2]– نفسه، ص 66.

[3]– نفسه، ص 88.

[4]– نفسه، ص 119.

2. المحفز الغربي الاستعماري

كان لتأثير هذا العامل دورا بالغا في تكوين مالك فكريا وتحديد توجهاته ويظهر هذا من خلال معايشته للمجتمع الفرنسي ومن خلال المحيط الدراسي ومن الاستعمار.

فتح ابن نبي عينه في بلده الجزائر المغتصبة من طرف الاستعمار الفرنسي وعاش مأساة وحرمان بلد يخطط له المستعمر لإقصائه وتهميشه بالكامل، وكيف كانت العائلات العريقة وأصبحت فيما بعد ذليلة تحت وطئت الاستعمار بسبب الاستيلاء على أراضيهم من طرف المعمرين بمساعدة الإدارة الفرنسية، حيث رأى الاستعمار الفرنسي من زوايا مختلفة وشعوره بخبث الأساليب الاستعمارية لاستنزاف الأهالي يقول بن نبي: " **وهكذا ... كلما وضع الاستعمار الترتيبات اللازمة لافتقار المستعمر ماديا، فإنه يتبعها بالترتيبات الخاصة بتلويثه الأخلاقي ليزيد الإفقار والتلوث معا في اتساع الهوة التي يجعلها أمام "القاصر" حتى لا يستطيع بلوغ رشده أبدا**"[1]. هذه الظروف صنعت منه مفكرا مبدعا .

لقد حاولت فرنسا طمس الهوية الجزائرية بما فيها من لغة ودين من أجل تعزيز وجودها الثقافي والفكري في المجتمع الجزائري يقول مالك: " **وفي هذا المستوى نجد أسباب التفاقم قد تضاعفت حين أضيف التعطيل الضخم الذي فرضه الاستعمار على حياة الشعب المستعمر إلى أسباب داخلية ناتجة عن الجمود الكبير الذي كبل تلك الجماهير بمرض القابلية للاستعمار**"[2] كانت أساليبها الاستعمارية في الجزائر قائمة على القهر والتحقير والإذلال هذا ما زاد في اهتمامات وتوجهات بن نبي، إن إحساس مالك بمشكلة الاستعمار ونضجه الفكري والسياسي ترك في نفسه انطباعات راح من خلالها بطرح العلاقات الإنسانية والحضارية الغربية والإسلامية.

---

[1]– مالك بن نبي: في مهب المعركة (ارهاصات الثورة)، ندوة مالك بن نبي، دار الفكر المعاصر، دمشق، ط 4، 2002، ص 44.

[2]– نفسه، ص 37.

أما ما يخص المحيط الدراسي وتأثيره في فكر مالك فيظهر من خلال حديثه عن معلمين ذكرهما بن نبي:

المعلم مارتن (Martin) وهو مدرس بمدرسة سيدي الجيلي بقسنطينة يقول : **(والذهاب بسرعة إلى مدرسة سيدي الجيلي حيث (مسيو مارتن Martin) وكان هذا المعلم يثري تلاميذه بالمفردات ويطبع في نفوسهم الذوق وفن الكتابة وكان يقرأ لنا أحيانا القطع الجيدة التي كتبها من هم أكبر منا والذين قضوا في مدرسته أكثر من سنة، لقد طبع في نفسي هذا تذوق القراءة، ففي مساء كل سبت كان يعير الكتب للتلاميذ، وقد أتاح لي ذلك أقرأ كل كتب (جول قيرن Jules Verne) وبعضا من روايات (الرداء والسيف)**[1]" فهو يشهد ما لهذا الأستاذ من الفضل في إثراء معارفه وتأثير فيه.

كذلك المعلم بوبريتي (Boubreiter) وكان معلم بمدرسة سيدي الجيلي يقول بن نبي: " **ومن جهتي أنا فقد كان الأستاذ (بوبريتي) قد فتح لي آفاقا جديدة، ولم يكن ذلك بفضل دروسه المقدرة علينا كتاريخ الأزمنة القديمة والأدب الفرنسي، وإن تكن هذه قد تركت أثرا لا ينكر إنما بفضل توجيهاته فيما تقرأ من كتب**".[2]

كذلك بعدها توجه مالك بعد إنهاء دراسته الثانوية إلى فرنسا بغرض الدراسة فيها وفي عام 1930 سافر مرة أخرى إلى فرنسا من أجل يدرس الحقوق في معهد الدراسات الشرقية يقول: " **بل طلبني مدير المعهد وفي هدوء مكتبه الوقور، شرع يشعرني بعدم الجدوى من الإصرار على الدخول إلى معهده فكان الموقف يجلي لنظري بكل وضوح هذه الحقيقة: أن الدخول إلى معهد الدراسات الشرقية لا يخضع بالنسبة لمسلم جزائري لمقياس علمي، وإنما**

[1]– مالك بن نبي: مذكرات شاهد القرن، مصدر سابق، ص 48.

[2]– نفسه، ص 65.

لمقياس سياسي"[1]. ولذا لم يوفق لدخول المعهد ومنه سجل اسمه في مدرسة الكهرباء والميكانيك، قسم اللاسلكي للحصول على درجة مساعد مهندس ولهذا فقد أقر ما للدور الذي لعبته دراسته للعلوم التطبيقية وتأثيرها على فكره من خلال التحليلات الكمية والكيفية وقياسها للمشكلات الحضارية.

وهناك التحق بجمعية اسمها: " الوحدة المسيحية للشبان الباريسيين" فانتسب إليها وكان هو المسلم الوحيد بها يقول: " **وانطلقت يحركني إيمان وارد على دين جديد، فكانت هذه الفترة الدراسية بالنسبة لي لا تقف عند حدود تهيئني لمدرسة اللاسلكي بل غيرت اتجاهي الفكري إذ أنها أسكنت في نفسي شيطان العلوم ولم يكن الأب موروا قد فتح أمامي باب مدرسة معينة، بل فتح لي باب عالم جديد يخضع فيه كل شيء إلى المقياس الدقيق للكم والكيف ويتسم فيه الفرد أو ما يتسم بميزات الضبط والملاحظة، وكنت بهذا الطريق أيضا أدخل الحضارة الغربية من باب آخر، بعد أن دخلت من باب (الوحدة والشبان المسيحيين الباريسيين)**"[2] وكذلك يقول: " **وقد أصبحت هكذا عضوا مسلما في الوحدة المسيحية وما كان لأمر كهذا أن يكون عاديا في سجلات المنظمة**"[3] وهذه الجمعية تدار وتنظم طبقا لحاجات شباب يدرس أو يعمل بعيدا عن بيوت الأهل واستطاع من خلال الجمعية اكتشاف نمط العلاقات الاجتماعية الغربية والسلوك الغربي بصفة عامة، والصفة التي تصبغ السلوك الفرنسي بصفة خاصة.

كذلك يعتبر زواج مالك بن نبي من خديجة 1931 له الأثر البالغ والكبير في تنمية حسه الجمالي حيث تعلم منها: التجميل والترتيب فكانت بمثابة الآلة التي لا تكل ولا تمل بإحساسها المرهف وكذلك تأثير أم زوجته فيرى بأنها لو ولدت رجلا لنجحت في الصفات

---

[1]– مالك بن نبي: مذكرات شاهد القرن، الطفل والطالب، مصدر سابق، ص 216.

[2]– نفسه، ، ص 219.

[3]– نفسه، ص 210.

التجارية فلذا ابنتها مثلها فكان يتناقش ويتجاذب أطراف الحديث مع زوجه خديجة حول الدين والقضية الجزائرية كما أنها كانت تحب الاستماع لتلاوة القرآن لذا يرى بأن تواجده في فرنسا ومعايشته لزوجته خديجة طوّرا استعداداته الوراثية إلى أفكار اجتماعية واضحة[1] قد كان لزواج مالك بخديجة الأثر الكبير في تنمية الحس الجمالي لديه.

قراءاته الغربية: قد كان لفضل قراءاته وتطلعاته للكتب الغربية والتراث الغربي دور في صقل شخصية بن نبي وهذا بفضل إتقانه للغة الفرنسية.

لقد كان التأثير واضح من مطالعاته للكتب الغربية وإدراك الظروف الشرقية البائسة خاصة كتاب (التلميذ LE DISCIPLE) لبيار بورجي، والذي مارس تأثيره في إخراج مالك من عالم الأوهام والسذاجة وكتب فاريرولونتي ولامارتين وشاتوبريان ومنهم عرف واقع الشرق وتاريخه يقول: " **هذه القراءات شكلت بالنسبة لي قوة أخرى من التنبيه في المجال الفكري، إذ حالت دون انحرافي في الرومانطيقية التي كانت شائعة في ذلك الجيل من المثقفين الجزائريين**".[2]

كما أن كتاب (كونديلا condillae) الذي أصبح رفيقه حتى على الوسادة وساعده على تحديد وضبط منهجيته في التفكير وتحديدها، وقرأ لجون ديوي[3] وكذلك عدة كتب منها لنتشه* (هكذا تكلم زرادشت) ولأرنولد توينبي، وكانط وغيرهم...الخ.

---

[1]– مالك بن نبي: مذكرات شاهد القرن، الطفل والطالب، مصدر سابق، ص 73–74.

[2]– نفسه، ص 66.

[3]– نفسه، ص 114.

*– نيتشه: (1844–1900) Friedrich Nietzsche فيلسوف ألماني، عالم نفس، وعالم لغويات شخصيته عدوانية، ناقد للمبادئ الأخلاقية والنفعية والفلسفة المعاصرة، وصاغ فكره في فلسفة إرادة القوة، وفكرة السوبر مان من خلال تجاوزه مرحلة الإنسان بإعلان موت الإله، أشهر كتبه: هكذا تكلم زرادشت. أنظر: مصطفى حسيبه: المعجم الفلسفي، مرج سابق، ص 376– 377.

كما كان دائما يتطلع ويطالع الجرائد والصحف خاصة صحيفة (الإنسانية L'humanité) والنضال الاجتماعي (Lutte social) والأقدام، والراية وأوجين يونغ، والأخبار الأدبية لهذا كان دائما وطني النزعة.[1]

فالواقع الثقافي بجانبيه العربي والغربي قد أسهم في تكوين مالك بن نبي مستقلا من خلال تلك القراءات التي شكلت في عمومها التفكير المنهجي والصياغة الفكرية الدقيقة من خلال تخصصه العلمي التقني الذي أمده بالخصائص العلمية والمنهجية التحليلية التي استفاد منها في كتاباته وحواراته وإنتاجه العلمي ونعني بها المحطات والمنابع في كتاباته عن الجانب التقني الذي فسر به كل الظواهر الاجتماعية والتاريخية والسياسية والحضارية على وجه الخصوص.

[1]– مالك بن نبي: مذكرات شاهد القرن، الطفل والطالب، مصدر سابق، ص 115.

المبحث الثالث: تفسيرات التاريخ الحضارية السابقة عن مالك (نماذج)

يعد العلامة ابن خلدون فيلسوف بحق هو أول من وضع المبادئ الأولى لفلسفة التاريخ أي وضع اللبنة الأولى لتفسير مسار التاريخ الذي يعتبره كعجلة دائرة تخضع للحتمية، إذ تتعاقب الحضارات على الدول تعاقب دوريا بين النشأة وازدهارها وانحطاط، حيث يعد ابن خلدون قد سبق الغربيين في موضوع فلسفة التاريخ حيث طرح آراء حضارية لتفسير حركة التاريخ والتي عدت التفسير الحضاري في الوقت اللاحق.

أ- ابن خلدون (التعاقب الدوري).

ب- شبنجلر (التفسير العضوي أو البعد البيولوجي).

ت- توينبي (التحدي والاستجابة).

أولا: ابن خلدون (التعاقب الدوري للحضارات)

يعرف ابن خلدون التاريخ يقول: " **حقيقة التاريخ أنه خبر عن اجتماع الإنساني الذي هو عمران العالم، وما يعرض لطبيعة ذلك العمران من الأحوال مثل التوحش والتآنس والعصبيات وأصناف التقلبات للبشر بعضهم على بعض، وما ينشأ عن ذلك من الملك والدول ومراتبها للبشر بعضهم على بعض، وما ينتحله البشر بأعمالهم ومساعيهم من الكسب والمعاش والعلوم والصنائع وسائر ما يحدث في ذلك العمران بطبيعته من الأحوال**".[1]

من هذا يتضح أن التاريخ هو ظاهرة معقدة ومركبة لا نستطيع دراسة التاريخ دون العمران أي لا نستطيع فصل الاجتماع البشري عن التاريخ فهو هذا الأخير خبر عمران العالم أي خبر عن الاجتماع الإنساني.

[1]- نقلا: عبد الحميد عويس، فلسفة تاريخ (نحو تفسير إسلامي للسنن الكونية والنواميس، مرجع سابق، ص 137.

لذلك ربط ابن خلدون علم التاريخ بعلم الاجتماع أي بتطور التاريخ يتطور المجتمع، لهذا أدخل نظرة تفسيرية نقدية وتفحيصية من أجل التعرف عن الأسباب لحدوث الوقائع التاريخية للشعوب حيث جعل التاريخ أداة كشف سر الاجتماع الإنساني. كما اعتبر ابن خلدون المجتمع كائنا تاريخيا يتطور وفق قوانين خاصة وهي قوانين يمكن ملاحظتها وتحديدها وذلك عن طريق دراسة مجموع الظواهر الاجتماعية.[1]

وهذا يعني أن الحياة البشرية في تغير مستمر فدوام الحال من المحال فالمجتمع حركي لذا فقد امتازت أفكاره بالنظرة الديناميكية* للمجتمع على مر العصور.

كذلك في تفسيره للتاريخ يرى أن التطور سنة من سنن الله في الحياة الاجتماعية فيقول: " إن أحوال العالم والأمم وعوائدهم ونحلهم لا تدوم على وتيرة واحدة ومنهاج مستقر، إنما هو اختلاف على الأيام والأزمنة، وانتقال من حال إلى حال، وكما يكون ذلك في الأشخاص والأوقات والأمصار فكذلك يقع في الآفاق والأقطار والأزمنة والدول.[2]

من هذا فابن خلدون لم يقم بالنقد فحسب بل قام بالتصحيح حيث استخدم الديناميكية والديالتيك**. لذا فالحضارة عند ابن خلدون تتعاقب على الأمم وتمر بثلاثة أطوار متعاقبة أو دورية تبدأ بالبداوة ثم يكون طور التحضر ثم طور التدهور وقد نظر ابن خلدون إلى الدولة

---

[1]– نقلا عن: زينب الخضيري: فلسفة التاريخ عند ابن خلدون، دار الثقافة، ط1، القاهرة، 1989م، ص 74.

*– **الديناميكية:** اعتبر المجتمع كائنا تاريخيا يتطور وفق قوانين خاصة به، وهي قوانين يمكن ملاحظتها وتحديدها، أنظر: رأفت غنيمي شيخ: فلسفة التاريخ، دار الثقافة، القاهرة، 1987– 1988، ص 43.

[2]– عبد الحليم عريس: فلسفة التاريخ، مرجع سابق، ص 132.

– **الديالتيك: هو علم القوانين العامة الشاملة للحركة وللتطور بالنسبة للطبيعة والمجتمع والفكر على السواء، والديالتيك عند ابن خلدون ذو خاصيتين: 1–مبدأ التأثير المتبادل والارتباط الكوني بين كل الظواهر سواء في الطبيعة أو في المجتمع. 2–مبدأ التغيير الكوني والتطور الذي لا يتوقف أبدا. انظر: زينب خضيري، ص 95– 96.

على أنها كائن حي يولد وينمو ثم يهرم ليفنى، فللدولة عمر مثلها مثل الكائن الحي تماما، وقد حدد عمر الدولة بمائة وعشرين سنة وهي تتكون من ثلاثة أجيال.[1]

يرى ابن خلدون إن المجتمع البشري يتطور ويسير كحياة الكائن الحي من الطفولة، الشباب، الكهولة، الهرم، الموت. كذلك حياة الشعوب والأمم تجري عبر الزمان بشكل أدوار فلا يكاد مجتمع قديم يهرم ويزول حتى يكتسحه مجتمع جديد يحل محله ويعيد سيرته بادئا في طور البداوة بعد أن مر بطور الفتح أو الغزو ثم ينتهي بطور الحضارة، وهذه الأطوار هي:[2]

أ- **البداوة:** فيمثله بمعيشة البدو في الصحاري والبربر وهؤلاء عنده لا يخضعون لقوانين مدنية تضبطهم بل تحكمهم عاداتهم وتقاليدهم أي العرف وحاجاتهم.

ب- **طور التحضر:** هو طور تأسيس الدولة بعد الغزو والفتح وبعدها الاستقرار وهذا الطور يقوم على الدين والعصبية*.

ت- **طور التدهور:** والسقوط فيأتي في نهاية التحضر بعد مرحلة الازدهار بعد انغماس الناس في الترف** والانحلال الخلقي وتغيير العرف.[3]

---

[1]- نقلا عن: زينب الخضيري: فلسفة التاريخ عند ابن خلدون، مرجع سابق، ص 207.

[2]- عبد الحليم عويس: فلسفة تاريخ، مرجع سابق، ص 132.

*- العصبية: عند ابن خلدون هي عصبة الولاء، والعصبية عنده من خصائص البادية وهي مما يفسد بحياة البادية ولها أثرها الهام في الحياة الاجتماعية، لها دور تأسيس الملك وتكوين الدولة.

أنظر: عبد الحليم عويس: فلسفة تاريخ، ص 132.

**- الترف: هو العامل الحاسم في ضعف الدولة وتدهور الحضارة، له دور في قوة الدولة وتحضرها له دور أكبر في انهيارها. أنظر: رأفت غيمي الشيخ، فلسفة التاريخ، ص 06.

[3]- نفسه، ص 133.

يتضح أن ابن خلدون هو أول من أطلق مفهوم الدورة الحضارية من خلال تشبيهها لمسار الإنسان، من ميلاد وشباب ثم موت من خلال بحثه عن عوامل البناء والأفول في التاريخ والحضارات عبر الزمن عن طريق الأجيال الثلاثة، حيث اعترف بن نبي لفضل ابن خلدون للدورة الحضارية وأقر بها واعتماده عليها من خلال أطوار الحضارة عنده: الروح، العقل، الغريزة فهو مقلد لابن خلدون لأنه صاغ نظرية ابن خلدون بألفاظ معاصرة لمواكبة العصر وأخذ منه فكرة الدين وأطلق عليها مركب الحضارة.[1]

لكن وجه له نقد: فيما يتعلق بالعصبية حيث أراد أن يدرس المسألة الحضارية من باب تعميم الفكرة التي يريدها: إلا أننا نجد مالك كذلك ذكر العصبية بأن لها دور.

ثانيا: اشبنجلر* (التفسير العضوي للحضارات)

تزداد أهمية المسألة الحضارية في التفسير التاريخي يوما بعد يوم بحيث أنها تغطي مساحة واسعة في أي مذهب للتفسير مهما كانت بنيته وتشكل القاسم المشترك بين المذاهب جميعا.

يعرف الفيلسوف الألماني اشبنجلر بالبعد البيولوجي للحضارة فرأى أن يحدث في فلسفة التاريخ ثورة كوبرنيكية وذلك بإطراح النظرة التقليدية إلى التاريخ كتيار مستمر متواصل من العصر القديم فالعصور الوسطى فالعصر الحديث وأن ينظر إلى التاريخ بدلا من ذلك على أساس أنه مؤلف من دوائر مغلقة.[2]

---

[1]– حسن محمد العقبي، مالك بن نبي وموقفه من القضايا الفكرية المعاصرة، مرجع سابق، ص 58–60.

*– **اشبنجلر**: فيلسوف حضارة ألماني (1880– 1936) ولد في بلانكبورج توفي في منشن درس في جامعة برلين ثم ميونخ تخصص في العلوم الطبيعية والرياضية كان أبواه مسيحيان بروستنتينيان، أحدث تأثيرا هائلا بكتابه (انحلال الغرب)، من أشهر مؤلفاته: صدر ج 1 منه 1920 تدهور الغرب أما ج 2 صدر 1922. للاستزادة: أنظر، عبد الرحمان بدوي: الموسوعة الفلسفة، ص 8.

[2]– عبد الرحمان بدوي: موسوعة الفلسفة، المؤسسة العربية للدراسات والنشر، ج 2، ط 1، بيروت، 1984، ص 08.

فدوائر الحضارة إذن كائنات عضوية، وتبعا لذلك فإنها تمتاز بتلك الصفات التي يمتاز بها كل كائن عضوي حي، فلكل حضارة كائنها المستقل المنعزل تمام العزلة عن كيان غيرها من الحضارات، ولا سبيل إلى اتصال حضارة بحضارة أخرى ما دامت كل حضارة باعتبارها كائنا عضويا ووجودا حقيقيا تكون وحدة مقفلة على نفسها.[1]

من هذا فتاريخ الحضارة عند اشبنلجر كالكائنات العضوية الحية التي تخضع لقانون مصيري صارم قد قررته دورة حضارتهم الحيوية (ولادة فشباب فشيخوخة فموت وفناء) أو كتوالي الفصول الأربعة (ربيع، صيف، خريف، شتاء).

والتاريخ في نظر اشبنجلر: هو مسرح لعدد كبير من الحضارات يسري عليها ما يسري على الكائنات العضوية تنبت وتنضج وتذبل وتفنى، أن تاريخ الحضارة كتاريخ أي كائن حي، إنسان أو حيوان أو نبات، أما تصور التاريخ يتقدم إلى ما لا نهاية فإنه كتصور نمو يرقة تنمو بالتغذي إلى غير نهاية إنه كما للكائن الحي دورة حياة كذلك للحضارة الظاهرة الأولية للتاريخ العالمي كله ما كان منه وما سيكون دورة حياة مغلقة[2] ومن هذا فلكل حضارة خصائصها الذاتية وشخصيتها فلا تشابه بين الحضارات.

عرف اشبنجلر الحضارة في كتابه (تدهور حضارة الغرب) بأنها: " **الظاهرة الأولية للتاريخ العالمي لأن الحضارة ظاهرة روحية لجماعة من الناس لها تصور واحد عن العالم، وتتبلور وحدة تصورهم في مظاهر حضارية من فن ودين وفلسفة وسياسة وعلم، وتشكل هذه الوحدة شخصية حضارية لها خصائصها الذاتية**".[3]

---

[1]– عبد الرحمان بدوي: موسوعة الفلسفة، ص 12.

[2]– أحمد محمود صبحي، في فلسفة التاريخ، مؤسسة الثقافة الجامعية، الاسكندري، 1975، ص 245.

[3]– العابد ميهوب، الفكر التربوي عند مالك بن نبي، مرجع سابق، ص 149.

ثم إن اشبنجلر حاول تمثيل الحضارة بالكائن الحي وتفسير مسار التاريخ تفسيرا بيولوجيا، ثم أن آراءه لا تتم بالتحليل العقلي العلمي أو الأحكام العلمية وبرأيه أن ذلك منهج العلم، وأن دراسته للتاريخ تتسم بالطابع الشعري والأحكام الإجمالية أي العامة[1] ومن هذا فمن التناقض في رأيه أن يحاول الإنسان دراسة التاريخ بمنهج العلم وإنما للتاريخ منهج قريب كل القرب من الشعر لأن موضوع كليهما واحد وهو الحي.

ولهذا يرى ابن نبي أن قانون الدورات الذي يراه ابن خلدون بحتميته، كما يراه (اشبنجلر) بحتميته أيضا، يبدو أنه حدث فيه تغير على ضوء أحداث الحرب العالمية الأولى وما بعدها، وكذا العامل الاستعماري، الذي وحد مصير الإنسانية من خلال توحيدها في آلامها.[2]

من هذا لم يعتمد اشبنجلر في دراسته للتاريخ على أسس منهجية واضحة لقد اعتمد على إحساسه الفطري في فهم أحداث التاريخ على خلاف الباحثين الذين يبحثون على الأسباب والعلل التي تقف وراء الأحداث والوقائع التاريخية فالحضارات عنده هي تراكيب عضوية وان التاريخ مجموع سيرتها الشخصية فابن نبي ينعت تفسير اشبنجلر بالعنصري، لكونه يربط الحضارة بعبقرية خاصة منفردة.

3. أرنولد توينبي (التحدي والاستجابة)

أرنولد توينبي يعد من أشهر أعلام فكرة التعاقب الدوري للحضارات في الثقافة الغربية الحديثة حيث استطاع أن يضع نظرية في فلسفة التاريخ وهي من أهم وأبرز نظريات فلسفة التاريخ الذي طبعها وميزها بالطابع الديني.

---

[1]– مفيد الزيدي: المدخل إلى فلسفة التاريخ، دار المناهج، عمان، الأردن، ط1، 2006، ص 118.

[2]– بدران بن مسعود بن حسن: الظاهرة الغربية في الوعي الحضاري (أنموذج مالك بن نبي)، مكتبة مؤمن قريش، ط3، الدوحة، 2000، ص85.

يرى توينبي أن الدين هو الذي يسير مجرى التاريخ وأن الحضارة ما هي إلا نتيجة لهذا الدين التي نشأت في أحضانه عن طريق التحدي والاستجابة* وهاته التحديات ما هي إلا ظروف صعبة مزرية سواء طبيعية أو بشرية هي التي تستحدث الإنسان على التحضر والاستجابة على إحدى تلك التحديات ولا تكون هذه الاستجابة ناجحة إلا من فئة مبدعة خلاقة هي التي تترك بصمتها في بناء الحضارة[1].

ومن هذا يعتقد توينبي أن الحضارة هي الوحدة الحقيقية لدراسة التاريخ لذا نجده يسمي الحضارة باسم الدين الذي نشأت فيه.

ويرى توينبي " **أن مفهوم الحضارة بمعناها الخاص، مقتصر على وجهة نظر الإنسان عن الحياة، أما بوجه عام، فالحضارة هي مجموعة الأفكار والرؤى والقيم السائدة التي توجه الإنسان، والتي تترك بصماتها وتلقي بظلالها على المنظومة الذهنية وأساليب وطرق التفكير لدى الإنسان، وعلى الدولة والمجتمع وهي سمة المجتمع بما يحتويه من أفكار ومبادئ وعادات وتراثيات وطبيعة الحياة من الجهة النظرية والفكرية والعملية...الخ**"، فالحضارة هي ما يحتويه الإنسان من الثقافة ويتحدث توينبي عن معنى الحضارة بشكل أدق (إنني أعني بالحضارة أصغر وحدة في الدراسة التاريخية يصل المرء غليها عندما يحاول أن يفهم تاريخ وطنه) [2].

لقد انتقد توينبي المؤرخين السابقين عنه الذين اتخذوا من الدول والأمم القومية مجالا لدراستهم التاريخية، فهو بالعكس اعتبره الحضارة هي أساس الدراسة التاريخية.

---

* – التحدي والاستجابة: يستخدم تونبي لفظين صينيين في التعبير عن التحدي والاستجابة هما "اللين"و " االيانج"– yan– yang بمعنى الركود، واليانج: بمعنى الحركة الدافعة، أنظر: أحمد محمود صبحي: في فلسفة التاريخ، مرجع سابق، ص 286.

[1]– مفيد الزيدي: مدخل إلى فلسفة التاريخ، مرجع سابق، ص 118–119.

[2]– نفسه، ص 149–150.

يقول توينبي: " **لا يمكن اعتبار البيئة هي العامل الإيجابي الذي جلب الحضارات إلى الوجود ، وإن كان بلا ريب عاملا عظيما له خطره في التشكيل الثقافي، إذ ما يزال هناك عامل لا يمكن تحديده هو – على ما يظهر– سيكولوجي في طبيعته، وهو أهم عوامل انبعاث الحضارات أهمية وأشدها ارتباطا بالقضاء والقدر**"[1] من هذا البيئة الجغرافية عند توينبي وحدها غير كافية لتفسير قيام الحضارات، وإنما السبب في نشوءها هو التحدي والاستجابة أي العوامل المادية والبشرية معا.

1- **مرحلة مولد الحضارة أو تكوينها (نشوءها):** يوضح فيها نظرية التحدي والاستجابة في مرحلة تكوين الحضارة من حيث الصعوبات التي هي عامل المحفز للإنسان والظروف التي تخلق وتصنع التاريخ فهو يفسر ويرد عن أن مصر هبة النيل بقدر ما هي حصيلة جهود الإنسان المصري الذي سيطر على الطبيعة أخضعها لفائدته وصالحه وحاجاته.[2]

فالحضارة في نظره ما يحتويه الإنسان من ثقافة ومجموعة الأفكار والقيم السائدة في المجتمع التي توجه الإنسان ونشاطه فالحضارة مقتصرة على رؤية الإنسان للحياة فوحدة الدراسة التاريخية هي المجتمع وليست الأمة فهذه الأخيرة ما هي إلا جزء من الكل (الحضارة).

2- **مرحلة نمو الحضارة:** أو الارتقاء الحضارة كما يسميها توينبي: يقول: " **قوام الارتقاء الحقيقي: فهي عملية يطلق عليها توينبي (التسامي) ويعني بهذا التغلب على الحواجز المادية وتعمل عملية التسامي على إطلاق طاقات المجتمع من عقالها،**

[1]– أرنولد توينبي: مختصر دراسة للتاريخ، ترجمة: فؤاد محمد شبل، المركز القومي للترجمة، الجزيرة، القاهرة، ج4، 2011، ص 10.

[2]– نفسه، ص 11.

لتستجيب لتحديات التي تبدو بعد ذلك داخل النفس أكثر منها خارجها، أي أنها روحانية الطابع أعظم منها ماديته".

3- **انهيار الحضارات وتدهورها:** من بين الأسباب لانهيار الحضارة وتدهورها هو فقدان الأقلية الحاكمة للطاقة المبدعة، ومن ثم فقدان القدرة على الإبداع والخلق وبالتالي اضمحلال القوة المحفزة ومنه يتمزق المجتمع ويتحلل[1].

من هذا النمو الحضاري هو حركة وتطور وهو فعل الأقلية النشطة المتحدية المتغلبة عن تلك الحواجز والعوائق فهي الأقلية المواجهة المبتكرة التي تجر وراءها الأغلبية غير الخلاقة.

بالرغم أن بن نبي تأثر بتوينبي في التعاقب الدوري إلا انه اختلف معه يقول بن نبي: " **على أن هذا المجتمع ليس معزولا بل إن تطوره مشروط ببعض الصلات الضرورية مع بقية المجموعة الإنسانية، ومن هذا يصبح التاريخ يلم بالظواهر في غايتها، هذا من الجانب الميتافيزيقي يضم الأسباب التي لا تدخل ضمن ما أطلق عليه توينبي (مجال الدراسة) لحضارة ما".**[2]

فالاكتفاء ب (مجال الدراسة) بمفهوم توينبي يعزل الجانب الغيبي الميتافيزيقي للتاريخ الذي يتطلب التجاوز بالدراسة إلى ما وراء السببية التاريخية كذلك ينتقد بن نبي توينبي في نظرية التحدي والاستجابة لأنها وإن كانت تفسر قيام بعض الحضارات فإنها لا تفسر لنا قيام بعضها الآخر.

---

[1]- أرنولد توينبي: مختصر دراسة التاريخ، مرجع سابق، ج 4، ص 11-17.

[2]- مالك بن نبي: وجهة العالم الإسلامي، تر: عبد الصبور شاهين، إشراف ندوة مالك بن نبي، دار الفكر، دمشق، سورية، ط2، 2002، ص 25.

كذلك ينتقد بن نبي ارنولد توينبي في نظرية المجال الجغرافي إذ أن : " **نمو مجتمع معين لا يقوم على حقائق الجنس أو عوامل السياسية بقدر ما يخضع لخصائصه الأخلاقية والجمالية والصناعية المتوافرة في رقعة تلك الحضارة**"[1] من هذا فإن تفسير توينبي لا ينطبق على العديد من الحضارات التي شهدها تاريخ الإنسانية وهذا ما رد به بن نبي على توينبي فالحضارة الإسلامية لم تنشأ بالتحدي والجغرافيا، مما يدل على قصور نظرية توينبي "في فلسفة التاريخ".

[1]– بدران بن مسعود بن الحسن: الظاهرة الغربية في الوعي الحضاري (نموذج بن نبي) ، مرجع سابق، ص 56.

الفصل الثاني

التفسير الحضاري للتاريخ عند مالك بن نبي:

المباحث:

- مفهوم التاريخ والحتمية التاريخية عند مالك بن نبي
- طبيعة الدورة الحضارية في التاريخ وعناصرها
- أطوار الحضارة للتاريخ عند مالك ومشكلاتها

المبحث الأول: مفهوم التاريخ والحتمية التاريخية

مما لا شك فيه أن الحضارة تعد من أهم المجالات التاريخية وذلك أن التاريخ يدرس الحضارات والحضارة جزء من التاريخ كما يعتبر توينبي الحضارة أساس الدراسة التاريخية في مجلده دراسة التاريخ فالتاريخ هو الذي يعبر عن الوقائع والكائنات الحضارية.

فقد تطورت دراسة التاريخ بعد العصور الوسطى إلى العصر الحديث والمعاصر، فأصبح علم ثابت له قواعده ومنهجه لذا اتسع مجال فلسفة التاريخ حتى أصبح مصطلحا في الدراسات الحديثة لقد تأسست نظريات تتناول الحضارة وفلسفة التاريخ محاولة تبيين القوانين التي تتحكم في سير حركة التاريخ الإنساني ثم دراسة الحضارات المختلفة كوحدات لدراسة التاريخ ومن أبرز هذه النظريات منها: التفسير المثالي الهيجلي والمادي الماركسي والعضوي لأزوالد اشبنجلر والتحدي والاستجابة لتوينبي.

ففلسفة التاريخ في أبسط تعريف: "**عبارة عن النظر إلى وقائع التاريخية بنظرة فلسفية، محاولة معرفة العوامل الأساسية التي تتحكم في سير الوقائع التاريخية والعمل على استنباط القوانين العامة الثابتة التي تتطور بموجبها الأمم والدول على مر القرون والأجيال كما أن هناك من يقول أن التاريخ يسير وفق مخطط معين وليس بطريقة عشوائية وأن فلسفة التاريخ هو رؤية المفكر للتاريخ وحكمه عليه**".[1]

كما أن فلسفة التاريخ ترتكز على مقولتين: مقولة الكلية ومقولة العلية

[1]– رأفت غنيمي الشيخ: فلسفة التاريخ، مرجع سابق، ص 14.

1- **مقولة الكلية:** هي نقطة البداية في فلسفة التاريخ هي التكامل بين الأجزاء والترابط بين الوقائع على شكل وحدة عضوية، ففلسفة التاريخ لا تقف عند عصر معين ولا مجتمع خاص فهي تضم العالم في إطار واحد من الماضي حتى المستقبل.

2- **مقولة العلية:** يختصر فيها المؤرخ العلل الجزئية للأحداث التاريخية إلى عدة واحدة يفسر على ضوئها التاريخ العالمي فهي بذلك مسلمة تقرر أن مسيرة الحياة والبشرية جزء منها فالعقل باستطاعته التوفيق والكشف عن العلل الحوادث وترابطها.[1]

ومن هذا فعلاقة الفلسفة بالتاريخ هي علاقة تكاملية فهي علاقة شد وعطاء فالفلسفة تحاول أن ترتفع وتعلو بالتاريخ كي لا يغوص في الماضي بإسراف والتاريخ يشد الفلسفة حتى لا تسمو بعيدا في غير العالم الذي نعيشه.

كما يعتبر المفكر الجزائري مالك بن نبي رحمه الله من ابرز المفكرين الذين اهتموا بالتاريخ والحضارة ومشكلاتها لذا تنتابنا تساؤلات: ما مفهوم التاريخ عند بن نبي؟ وفيما تتمثل الحتمية التاريخية عنده؟ وما طبيعة الدورة الحضارية للتاريخ وما هي شروطها ومراحلها ومشكلاتها؟

أ- **مفهوم التاريخ:** يعد التاريخ من أكثر القضايا اهتماما عند المفكرين في العصر الحديث فيعد التاريخ علم من العلوم الإنسانية لأنه يدرس التطور البشري في جميع نواحيه ويمكن القول: " **بأن كلمة التاريخ تحمل معنيين: المعنى الأول يتمثل في أحداث التاريخ ذاتها التي وقعت في الماضي والمعنى الثاني يتمثل في رواتبنا نحن لهذه الأحداث، وبالتالي يكون هناك مجالين**

[1]- رأفت غنيمي الشيخ: فلسفة التاريخ، مرجع سابق، ص 15-16.

لفلسفة التاريخ: المجال الأول يبحث في مسار التاريخ وتطوره والمجال الثاني يعني بالفكر الفلسفي في حد ذاته".[1]

التاريخ عند مالك بن نبي: " **إن صناعة التاريخ تتم تبعا لتأثير طوائف اجتماعية ثلاثة: تأثير عالم الأشخاص وتأثير عالم الأفكار وتأثير عالم الأشياء"**[2] **ويقول كذلك " إن الزمن نهر قديم يعبر العالم"**[3] ويقول كذلك في صلة الحضارة بالتاريخ " لدراسة جوانب متعددة فإذا ما تناولناه بالقياس إلى الفرد كان دراسة نفسية، إذ يكون دراسة للإنسان بوصفه عاملا نفسيا زمنيا في بناء حضارة.

ولكن هذه الحضارة تعد مظهر من مظاهر الحياة والفكر الجماعي ومن هذا الجانب يعد التاريخ دراسة اجتماعية إذ يكون دراسة لشرائط نمو مجتمع معين لا يقوم نموه على حقائق الجنس أو عوامل السياسة بقدر ما يخضع لخصائصه الأخلاقية والجمالية والصناعية المتوافرة في رقعة تلك الحضارة".[4]

ومن هنا فدراسة التاريخ لها جوانب متعددة منها الجانب الفردي وبالتالي فهو دراسة نفسية ومنها الجانب الاجتماعي وبالتالي فالتاريخ من هذا الجانب دراسة اجتماعية، إذ يكون دراسة شروط نمو مجتمع معين، فهو يعتبر العلامة ابن خلدون أول من اكتشف منطق التاريخ من خلال نظريته في أعمار الدولة، ودور العصبية في تحقق سنة التداول، إلا أنه ينتقده في ضيق

---

[1]– رأفت غنيمي الشيخ، فلسفة التاريخ، مرجع سابق، ص 15.

[2]– مالك بن نبي: ميلاد مجتمع، شبكة العلاقات الاجتماعية، تر: عبد الصبور شاهين، دار الفكر، دمشق، سوريا، ج1، 1974، ص 23.

[3]– مالك بن نبي: بين الرشاد والتيه، دار الفكر، دمشق، سورية، ط2، 2002، ص 68.

[4]– مالك بن نبي: وجهة العالم الإسلامي، مرجع سابق، ص 25.

مفهومه لدراسة أعمار الدولة وضيق مفهومه عن العصبية والدولة، بالرغم أن المجتمع نموه مرتبط ومتوقف على توفر مجموعة من الخصائص والشروط الإنسانية.

كذلك يقول: " **فالتاريخ ليس ما تصنعه الصدف ولا مكائد الاستعمار ولكنه ما تصنعه الشعوب ذاتها في أوطانها**"[1] من هذا التاريخ ما تصنعه الأمم.

كما يعتبر بن نبي التاريخ علم مستقل بذاته كسائر العلوم الأخرى، فهو يعود باستمرار إلى التاريخ لتفسير حالة اجتماعية أو سياسية او ثقافية أو اقتصادية وكذلك بالنسبة للعلوم، فإنه ينظر إلى كل علم برؤية زمنية إذ لا يمكن فهم كثير من العلوم والنظريات العلمية والوقائع المعاصرة دون إلمام بخلفياتها التاريخية وهذا يخص العلوم الاجتماعية والطبيعية معا[2] وكذلك في هذا الصدد التاريخ عند مالك بن نبي يأخذ بعدا ديناميكيا، فهو في النطاق الخاص يمثل العمل المشترك لأمة من الأمم أو مجتمع من المجتمعات، وفي النطاق العام هو العمل المشترك للإنسانية، وهذا العمل المشترك يسهم في صنعه كل من القلب والعقل واليد، ولكي يسير المجتمع لا بد من وجود العلاقة الاجتماعية، وكل علاقة اجتماعية تصدر حتما من دوافع القلب، ومن مبررات وتوجيهات العقل، وحركات الأعضاء وهكذا يصنع التاريخ [3] فالتاريخ بهذا المعنى يحمل طابع الحركة والصيرورة أنه حركة الفعل البشري من حالة السذاجة إلى حالة التطور، من السكون والجمود إلى حالة الحركة والتغيير، ذلك " أن كل تغيير يطرأ على الخصائص التشكيلية أو يحدث في التوجيه الثقافي لجماعة إنسانية معينة هو نتيجة مباشرة لوظيفتها التاريخية، فكل جماعة لا تتطور ولا يعتريها تغيير في حدوث الزمن تخرج بذلك من التحديد الجدلي لكلمة

[1]– مالك بن نبي: بين الرشاد والتيه، مرجع سابق، ص 68.

[2]– مالك بن نبي: في مهب معركة، مصدر سابق، ص 18.

[3]– مسعود بعيش، فلسفة الحضارة بين مالك بن نبي وروجيه غارودي، أطروحة مقدمة لنيل دكتوراه في الفلسفة. جامعة الجزائر، 2005-2006، ص 60.

مجتمع[1] ومن هذا فتقوم فلسفة التاريخ عند مالك بن نبي رحمه الله على الحتمية التاريخية والتعاقب الدوري للحضارات حيث عددها إلى ثلاثة أطوار: طور الحضارة، طور ما بعد الحضارة وطور ما قبل الحضارة، فحركة التاريخ ترتبط بحركة الإنسان وفاعليته في المجتمع إذن فالإنسان هو الذي يحرك التاريخ وذلك ضمن حتمية تاريخية يستوجب التحرر منها بمعرفة القوانين التي تنشئ الحضارات.

ب- الحتمية التاريخية

1-**الحتمية لغة:** في الفرنسية Déterminisme حتم بكذا حتما: قضى وحكم، وحام الله الأمر: قضاه، وحتم الأمر: أحكمه، وحتم عليه الأمر: أوجبه فالحتم القضاء أو إيجاب القضاء (ابن سيده)، أو اللازم الواجب الذي لا بد من فعله وفي التنزيل الحكم: " **كان على ربك حتما مقضيا**"[2] والحتمي هو المنسوب إلى الحتم[3] .

في الاصطلاح: الحتمية بالمعنى المشخص هي القول: أن كل ظاهرة من ظواهر الطبيعة مقيدة بشروط توجب حدوثها اضطرارا أو هي مجموع الشروط الضرورية لحدوث إحدى الظواهر أو هي القول بوجود علاقات ضرورية ثابتة في الطبيعة، فالقول بالحتمية ضروري لتعميم نتائج الاستقراء العلمي أن الظواهر الطبيعية تجري وفق نظام كلي دائم[4] وكذلك جاء في المعجم الفلسفي لمصطفى حسيبة الحتمية هي فرضية فلسفية تقول أن كل حدث في الكون بما في ذلك إدراك الإنسان وتصرفاته خاضعة لتسلسل منطقي سببي محدد سلفا ضمن سلسلة غير متقطعة من الحوادث التي تؤدي بعضها إلى بعض وفق قوانين محددة، إن جميع الحوادث ليست سوى

---

[1]- مسعود بعيش، فلسفة الحضارة بين مالك بن نبي وروجيه غارودي، مرجع سابق، ص 62.

[2]- سورة مريم، الآية 71.

[3]- نقلا :عن جميل صليبا: المعجم الفلسفي، ج1، مرجع سابق، ص 442.

[4]- نفسه، ص 443.

نتيجة لأسباب وظروف محددة فلا ظواهر اجتماعية أو سياسية تحدث صدفة، بل لكل حادثة إنسانية علاقات سببية تربطها بمسببات موضوعية من هنا فالحتميون لا يكتفون برصد الظاهرة بل يفتشون عن أسبابها الأولى والأساسية.[1]

أما الحتمية التاريخية كوحدة هي:

2-الحتمية التاريخية:

يعتبر بن نبي أن التاريخ مهمة الإنسان ووظيفته فوق هذه الأرض وفي هذه الحياة فهو صانع التاريخ ومدونه يقول مالك بن نبي: " **على أنني حينما أرى في حركة التاريخ حركة الإنسان وفي ركوده ركود الإنسان فإن ذلك يضعني أمام مشكلة تصنف تحت عنوان الفعالية فعالية الإنسان في التاريخ**"[2] فالتاريخ مرتبط بالسلوك الاجتماعي عند بن نبي والبنية الثقافية هذا من جهة ومن جهة أخرى فمفهوم التاريخ مرتبط بالتغيير والتطور والتكامل وهي قوانين تنظم حركة التاريخ.

" فالمستعمرات التي لا تتغير صورة حياتها عبر الزمن هي برأيه شبيهة بمستعمرات النمل خلال آلاف السنين، ولذلك فهذه الجماعات هي خارجة عن نطاق التحديد، وهي حياة تصور لنا حتى الآن مرحلة مرت بها الإنسانية في عصور ما قبل التاريخ"[3] ومن هنا فالمجتمع هو جزء من هذا العالم فإما أن يكون مجتمع حركي ديناميكي يخضع للضرورة الحتمية أو مجتمع ثابت غير متغير مثل مجتمع الحشرات (النمل).

إن الحركة البشرية التي تقوم بها المجتمعات هي التي تولد لها الحضارة ولا يمكن أن يتحقق لها ذلك إلا إذا تحققت الحركة الإيجابية فيقول مالك " **تكتسب الجماعة الإنسانية صفة**

---

[1]- مصطفى حسيبة، المعجم الفلسفي، مرجع سابق، ص 178.

[2]- مالك بن نبي: تأملات، مصدر سابق، ص 190.

[3]- مسعود بعيش: فلسفة الحضارة بين مالك بن نبي وروجيه غارودي، مرجع سابق، ص 61.

"المجتمع" عندما تشرع في الحركة أي عندما تبدأ في تغيير نفسها من أجل الوصول إلى غايتها وهذا ينبثق من الجهة التاريخية مع لحظة انبثاق حضارة معينة"[1] ومن هذا فإن لفظ المجتمع يطلق على الشعوب التي يكون باستطاعتها التغيير والتقدم والرقي والنهوض وتسجيل حضورها في التاريخ على عكس الشعوب الساكنة الثابتة: لكن الجماعات الساكنة فهي تعيش في مرحلة ما قبل الحضارة، ومن هنا يصل مالك بن نبي إلى نتيجة أن الطبيعة توجد النوع ولكن التاريخ يصنع المجتمع، وهدف الطبيعة هي مجرد المحافظة على البقاء بينما غاية التاريخ أن يسير بركب التقدم نحو شكل من أشكال الحياة الراقية هو ما نطلق عليه الحضارة"[2].

وهنا علينا أن نتساءل كيف تمكن مالك بن نبي الجمع بين القوانين ذات طابع الحتمي وإرادة الإنسان بأن الإنسان هو الذي يحرك التاريخ يقول بن نبي: " **فحتمية التاريخ تصبح في قيد الإنسان وتحت رقابته**"[3] فالحتمية التاريخية يستوجب التحرر منها بمعرفة القوانين التي تنشئ الحضارات فلقد أيد بن نبي قانون الحتمية، فلا توجد حرية إلا التنبيه للضرورة التاريخية ومعرفة هذه القوانين وبهذا يصبح الإنسان هو محرك وصانع التاريخ بإدراكه لقانون الطبقية وفي هذا الصدد أيضا يقول بن نبي " **آلية الحركة التاريخية إنما ترجع في حقيقتها إلى مجموع من العوامل النفسية الذي يعتبر ناتجا عن بعض القوى الروحية، وهذه القوى الروحية هي التي تجعل من النفس المحرك الجوهري للتاريخ الإنساني**".[4]

---

[1]- مسعود بعيش: فلسفة الحضارة بين بن نبي وروجيه غارودي، مرجع سابق، ص63.

[2]- نفسه، ص 63.

[3]- مالك بن نبي: بين الرشاد والتيه، مصدر سابق، ص 68.

[4]- مالك بن نبي: ميلاد مجتمع ، مصدر سابق، ص 23.

لهذا فالتاريخ محكوم عليه بنوع من الجبر والضرورة وذلك لاعتقاد بن نبي بأن القوى الروحية التي توجه حركة التاريخ وهاته القوى غير خاضعة للقوى المادية فقط، فالقوى النفسية والفكرية لها دور كذلك في تحريك التاريخ.

كذلك يرى مالك بن نبي أن الحركة التي تؤدي إلى أسبابها هذا يجعلنا في تعارض فالتخطيط الحركي يعطينا صورة عن المجتمع في حركته لكن لا يفسر الأساسيات الأولية لانطلاق هذه الحركة، أي كل وسط إنساني في تحركه منتج لهذه الحركة التي تقهر الخمود الفطري إلى قيم حركية، فهيجل يرجع الأسباب التي تحكم التاريخ وحركته أي كل تغيير اجتماعي إلى مبدأ التعارض من خلال القضية ونقيضها، فعندما تنشأ الحركة طبقا لهذه الأسباب المتعارضة، حتما تكون الغاية في التركيب فالأحوال الثلاثة في رأي هيجل هي التي تسيطر على حركة التاريخ فكل تغيير اجتماعي، فالقوة المحركة عنده هي فكرة التعارض التي تسير التاريخ وتخلق أسبابه، وكذلك الفكرة الماركسية ترجع أسباب التعارض المؤدية إلى حدوث تغيير اجتماعي ذات طابع اقتصادي فميلاد المجتمع والحضارة ينشأ عن فكرة تعارض الاقتصادي.[1]

كذلك يرى بن نبي أن توينبي يضع التغيير الاجتماعي بين نطاقين فهو قد فسر أهم مراحل التاريخ الإنساني فيرى أن العلة في بقاء الجماعات الإنسانية في حالة راكدة لا تكون مجتمعا فهو يرجع نقص التحدي أو زيادته يؤثران بصورة واحدة على قوى التاريخ الإنساني ومنه صاغ بن نبي ما ذهب إليه هذا الأخير في ضوء القرآن الكريم بتفسير الحركة بالعوامل النفسية التي حفزت القوى الروحية فضمير المسلم بين حدين هو الوعد والوعيد[2*]

---

[1]- مالك بن نبي: ميلاد مجتمع، مصدر سابق، ص 17-18.

[*]- الوعيد هو الحد الأدنى الذي لا يوجد دونه جهد مؤثر والوعد هو الحد الأعلى الذي يصبح الجهد من ورائه مستحيلا، وذلك حين تطغى قساوة التحدي على القوة الروحية التي منحها الإنسان. أنظر: ميلاد المجتمع، ص 21.

[2]- نفسه، ص 19-20-21.

يقول كذلك بن نبي " **شبكة العلاقات الاجتماعية الذي يتيح لمجتمع معين أن يؤدي عمله المشترك في التاريخ إنما يكمن في تخلق تركيبه العضوي التاريخي وعلى هذا فإن تاريخ هذا التركيب هو الذي يفسر أصله كما يحدد في الوقت نفسه طبيعة العلاقات الاجتماعية لحظة نشوئها**"[1] من هذا فشبكة العلاقات هي المركب الأساسي للعوالم الثلاثة: الأفكار والأشخاص والأشياء، فهي محفز المجتمع لأداء عمله وبالتالي تحريك المجتمع.

فكل تغيير برأي مالك مشروط باكتمال الشبكة من العلاقات يقول: " **أن شبكة العلاقات هي العمل التاريخي الأول الذي يقوم به المجتمع ساعة ميلاده**".[2]

كما يرى بن نبي أن تركيب العوالم الثلاثة الاجتماعية تؤدي إلى التغيير وبالتالي تطور المجتمع فالعمل ضرورة من صنع هذه العوالم فتؤدي إلى غاية من وحدتها لتعطي في الأخير حضارة فشبكة العلاقات اللازمة لأداء العمل الاجتماعي المشترك يتكون منها مجتمع معين فهو نتيجة الظروف والشروط التي تحدث الحركة التاريخية نفسها.[3]

ويقول بن نبي كذلك: " **وهكذا وجدنا في مستهل القرن التاسع عشر أحد كبار المؤرخين جيزو يحلل الحركات التاريخية في أوروبا فيرد المشكلة إلى حدود علم اجتماع وعلم النفس معا فهو يرى أن التاريخ من كونه (علم وقع فعلا) فموضوعه يتناول بطريقتين فإما: أن يحدد مجال دراسة في الفرد نفسه، في كل ما يؤثر في حياته، وإما أن يجده في الوسط المحيط به أي كل ما يؤثر في حياة المجتمع، والتاريخ على أية حال سوى هذا التغيير الذي تتعرض له الذات والمجال الذي يحوطها على السواء أي أنه على ما ذهب إليه علم الاجتماع (النشاط**

---

[1]- مالك بن نبي: ميلاد مجتمع، مصدر سابق، ص 27.

[2]- نفسه، ص 25.

[3]- نفسه، ص 24-25.

المشترك) المستمر الذي تقوم به الكائنات والأفكار والأشياء، مطبوعا على صفحة الزمان"[1] يعتقد بن نبي أن المجتمعات الساكنة لم تدخل بعد التاريخ فمثلا الدين هو محرك أساسي للمجتمعات فإذا فقد رجل الدين نشاطه تقل الحركة والتغيير لاهتمامه بالتأويلات الميتافيزيقية والخطب والبيان والابتعاد عن الواقع كذلك حالة الاسكيمو الذين يعتبرون نموذجا للجماعة الإنسانية الراكدة لأنها لم تساهم في تغيير وجودها وبالتالي بقيت ساكنة.[2]

وكذلك توجد عدة عوامل تتحكم في بناء المجتمع وحركة التاريخ وتكوين الحضارة، وهي عوامل تاريخية، هذا من جانب ، ومن جانب آخر تطور المجتمع مرتبط ببعض العلاقات الضرورية مع غيره من المجتمعات الأخرى، باعتبار المجتمع ليس في منأى عن المحيط الإنساني، فالعوامل الداخلية والخارجية المسؤولة عن حركة التاريخ في مجتمع ما، بعضها تمثله السببية التاريخية وبعضها تمثله الميتافيزيقية التاريخية التي تلم بالظواهر في غايتها، هذا من الجانب الميتافيزيقي يضم الأسباب التي لا تدخل ضمن ما أطلق عليه توينبي لا مجال الدراسة لحضارة ما".[3]

ويقول كذلك ابن نبي " **والشعوب التي تصنع التاريخ هي تلك الفاعلة والعاملة على تحريك مسيرته وتوجيه مساره في حين أن الشعوب التي تتأخر عن موعد التاريخ فهي تلك الأمم التي تسير ببطء في حين أن المشكلات تحتاج إلى نسق مسرع لحلها، وهذا النقص الذي يصيب الإنسان المتأخر يحتاج إلى تغيير ما بنفسه حتى تتغير حالته**".[4]

---

[1]– مالك بن نبي: ميلاد مجتمع، مصدر سابق، ص 23.

[2]– مالك بن نبي: مشكلة الثقافة، ترجمة: عبد الصابور شاهين، دار الفكر، دمشق، سورية، ط5، 2000، ص 99. نفسه، ص 20.

[3]– نفسه، ص 57.

[4]– نفسه، ص 107.

كما أن مالك لا يضخم دور الفرد المتميز في صناعة التاريخ لأن عظمة لا يصنعها الجنس أو رقعة جغرافية أو دين خاص بل من خلال ظروف تاريخية فالذي يؤثر على مسار الحدث الفرد أو الجماعة الذي تتوفر فيه الشروط النفسية داخله وأخرى استجابة للتحديات الخارجية ومنه يتحرك فيتغير فالعظماء لم يصنعوا التاريخ في نظره بل يساهمون في تعجيل حركة التاريخ.

كذلك يربط بن نبي مفهوم الحضارة بالثقافة من حيث وظيفتها الاجتماعية والتاريخية فالثقافة عنده " **علاقة متبادلة هي العلاقة التي تحدد السلوك الاجتماعي لدى الفرد بأسلوب الحياة في المجتمع، كما تحدد أسلوب الحياة بسلوك الفرد**"[1] فالتبادل إذن يكون بين الفرد والمجتمع وهذا يمثل الجانب النفس الاجتماعي، فالثقافة في فكر مفكرنا هي البيئة التي تصوغ كيان ووجود الفرد.

بما أن الثقافة هي عامل اجتماعي مهم في التاريخ يقول مالك " **إذ لا يمكن أن تتصور تاريخا بلا ثقافة، فالشعب الذي يفقد ثقافته يفقد حتما تاريخه**"[2] ويقول أيضا: " **هناك حتمية أخرى تدخل في هذا التحديد نطلق عليها الحتمية الجغرافية فلكل ثقافة رقعتها حيث تكشف منابع إلهامها**"[3]. من هذا فثقافة أي مجتمع تعكس نمط حياة الأفراد فيه، كما تقوم بحفظ ونقل ذلك التراث الثقافي من جيل لآخر ومن فترة زمنية تاريخية إلى أخرى، وثقافة المجتمع المتحضر تعكس حضارة ذلك المجتمع كما تحفظ خصوصيات تلك المجتمعات بنقلها للآخرين، فمثلا: ثقافة

[1]– مالك بن نبي: مشكلة الثقافة، ص 57.

[2]– نفسه، ص 107.

[3]– نفسه، ص 120.

المجتمع الإسلامي منذ أربعة عشر قرن تنقل من جيل لآخر محافظة على التراث الثقافي الإسلامي.

يقول بن نبي: " **(فالشخص) في ذاته ليس مجرد فرد يكون النوع، وإنما هو الكائن المعقد الذي ينتج حضارة، وهذا الكائن هو في ذاته نتاج الحضارة إذ هو يدين لها بكل ما يملك من أفكار وأشياء وبعبارة أخرى كل من العوالم الاجتماعية الثلاثة يتفق مع الصيغة التحليلية التالية: ناتج حضارة= إنسان +تراب +وقت**".[1]

نستنتج مما سبق ذكره أن فلسفة التاريخ عند مالك بن نبي أخذت من الفلسفات السابقة وتأثرت بها بالرغم أنها اختلفت معها في عدة جوانب كما أنه مجال التاريخ في هذه الفلسفة هو الفرد والمجتمع وما يحيط بهما فهو يسجل ذلك محدد عوامل الضعف وشروط الازدهار لمجتمع معين في مرحلة معينة كذلك مع المحافظة أثناء النقل فللتاريخ دورة كما أن للحضارة دورة فلهما نقطة الانطلاق ونقطة الوصول، فتنطلق الحركة التاريخية أو الدورة الحضارية من قاعدة مؤكدة في القرآن وفي البحوث والدراسات هي تغيير النفس أولا، وهذا ما نود أن نتعرف عليه في المبحث الثاني: فما هي طبيعة الدورة الحضارية في التاريخ عند بن نبي؟ وفيما تتمثل عناصرها؟

[1]- مالك بن نبي: ميلاد مجتمع، مصدر سابق، ص 26.

المبحث الثاني: طبيعة الدورة الحضارية في التاريخ وعناصرها عند مالك بن نبي

لا شك في أن تجمعات الأفراد تكمن في الاجتماع لتأسيس المجتمع من أجل قضاء حاجاتهم المتعددة لأن الفرد بمفرده لا يبلغ ولا يدرك مبتغاه إلا في ظل الجماعة، وهذا ما يدفع الأفراد إلى التعاون والاجتماع وذلك من خلال اللغة الواحدة والقيم والعرف السائد الذي يضبط العلاقات الاجتماعية، وللحضارة دورة تشكيل مراحلها من النهوض إلى السقوط، فسنتعرف على طبيعة الدورة الحضارية وعناصرها عند مالك بن نبي.

أولا: طبيعة الدورة الحضارية

نعني بدورة الحضارة تلك المراحل والأطوار التاريخية التي تمر بها الحضارة مجتمع (أمة) أثناء حركته فلها نشوء وميلاد وازدهار وسقوط وأخيرا النهاية لتعيد كرتها من جديد، فالتاريخ الإنساني حلقات متسلسلة تشكل الحضارة إحدى وحداته، فهي في صيرورتها لا تسير في تقدم ورقي مستمرين بل تجري إلى تأخر وانحطاط حيث أنها تسلك دورات مستقلة، لكل منهما مراحل تقدم ورقي، ومراحل تأخر وانحطاط، فالحضارة تنتقل من الصيرورة إلى الصير فهي تنتقل من عصر النمو والحركية والنشاط والفاعلية إلى عصر ومرحلة السكون والجمود، إنها الموت يتبع الحياة.[1]

ومن هذا فإن كل مرحلة تاريخية معينة أي حضارة ، ليست بالضرورة أكثر تطورا من قبلها كما يرى ذلك (أوكست كونت) في قانون الأحوال الثلاث فالتاريخ لا يسير في اتجاه تطوري تقدمي، إلا بين طوري النشأة والتطور والازدهار أي النضج ، أما بين هذا الأخير وطور التدهور

[1]– نقلا عن: جمال بروال: الدورة الحضارية بين فكر مالك بن نبي وأزوالد شبنلجر، مذكرة ماجستير في فلسفة الحضارة. كلية العلوم الإنسانية والاجتماع، جامعة الحاج لخضر، باتنة، الجزائر، 2012–2013، ص 16.

والضعف فهناك رجوع إلى الوراء، إذن فمسار التاريخ هو مسار دوري للحضارات يسري لها مال يسري للكائنات فهي تنبت وتنمو ثم تنضج وتموت.

وعليه فإن مفهومها لا يخرج عن نظرية التعاقب الدوري في تفسير التاريخ الذي يرى فيه دعاته وأنصاره، أن التاريخ يسير في دورات متتالية ومتشابهة بحيث تعود الأحداث السابقة من جديد وبأشكال متفاوتة وتترتب عليها النتائج ذاتها، أي الاعتقاد بالتكرار الحتمي في عملية التطور التاريخي والحضاري.[1]

لقد استوحى بن نبي حقيقة دورة الحضارة من نظرية ابن خلدون عن الأجيال الثلاثة وإن اختفى عمق الفكرة لضحالة وضيق المصطلحات يقول مالك: " **أما ابن خلدون، فقد تمكن من قبل من اكتشاف منطق التاريخ في مجرى أحداثه، فكان بهذا المؤرخ الأول الذي قام بالبحث عن هذا المنطق إذا لم نقل إنه قد قام بصياغته فعلا، فقد كان يمكن أن يكون أول من أتيح له أن يصوغ قانون الدورة التاريخية (La luidu cycle) لولا أن مصطلح عصره قد وقف به عند ناتج معين من منتجات الحضارة ونعني به –الدولة– وليس عند الحضارة نفسها**"[2] ومن هذا فقد تأثر بن نبي بابن خلدون في الدورة الحضارية إلا أنه نقده في ضيق مفهومه لدراسة أعمار الدولة وضيق مفهومه عن العصبية.

كذلك يقول بن نبي: "**الحضارة من هذا الجانب تتمثل أيامنا كأنها مجموعة عددية تتابع في وحدات متشابهة، ولكنها غير متماثلة وهكذا تتجلى لأفهامنا حقيقة جوهرية في التاريخ هي: (دورة الحضارة) وكل دورة هي محددة بشروط نفسية زمنية خاصة بمجتمع معين فهي**

[1]– جمال برزال: الدورة الحضارية بين فكر مالك بن نبي وأزوالد شبنلجر ، مرجع سابق، ص 17.

[2]– مالك بن نبي: شروط النهضة، ترجمة: عمران كامل مستقاوي، عبد الناصر شاهين، ندوة مالك بن نبي، دار الفكر، دمشق، سورية، 1986، ص 62.

(الحضارة بهذه الشروط) ثم إنها تهاجر وتنتقل بقيمها إلى بقعة أخرى، وهكذا تستمر في هجرة لا نهاية لها، تستحيل خلالها شيئا آخر لتعد كل الاستحالة تركيبا خاصا للإنسان والتراب والوقت"[1] من هذا فالمبدأ الذي انتهجه بن نبي يتمثل في أن الحضارة يحكمها قانون الهجرة أو الدورة هذا يعني استمرار الحضارة وتنقلها من مكان اضمحلت فيه عناصرها أي شروطها الأولية إلى مكان آخر توفرت فيه هاته الشروط لتبدأ منها دورة جديدة تواصل به سيرها كما أنه في دراسته (الظاهرة الدورية) يعتمد على الآية القرآنية يقول تعالى: " **وتلك الأيام نداولها بين الناس**"[2] ليؤسس عليها قانونه في دورة التاريخ بل التداول الحضاري.

وفي هذا الصدد يرى بن نبي بأن الحضارة في تصوره تتابع في وحدات متشابهة، وغير متماثلة وعليه يتجلى في تاريخ البشرية هو وجود (دورة الحضارة) حيث ركز مالك بن نبي على الحضارتين الإسلامية والغربية فهو يقرأ بأن المدينات الإنسانية حلقات متصلة تتشابه أطوارها مع أطوار المدينة الإسلامية والغربية فتبدأ الدورة بظهور فكرة دينية ثم يبدأ أفولها، يتغلب جاذبية الأرض عليها بعد أن تفقد الروح ثم العقل.[3]

ومن هذا فالدورة هي تلك والأطوار المتتابعة التي تضم الأحداث التاريخية المختلفة بأنواعها سواء إنسانية أو طبيعية وهذا أثناء حركتها وسيرها بحيث تشهد نفس البداية والانطلاقة لتصل إلى الانهيار لتعيد نفس الكرة من جديد وفق نفس الانطلاقة فكل شيء في هذا الكون يسير ويتحرك ويتغير ثم يختفي ليعود بزوغه من جديد من النقطة التي انطلقت منها ليشهد نفس الحركة وهذا ما ينطبق على الحضارة كظاهرة إنسانية، ومنه فالسند الذي اعتمد عليه بن نبي من

[1]– مالك بن نبي: وجهة العالم الإسلامي، مصدر سابق، ص 27.

[2]– سورة آل عمران، الآية 40.

[3]– مالك بن نبي: شروط النهضة، مصدر سابق، ص 79.

التفسيرات السابقة هو أن التاريخ هو تاريخ الفعالية البشرية وتغييرها إلى الأفضل وهو التغيير من الحالة البدائية إلى الحالة الإنسانية فهو مع هيجل بأن التاريخ هو تاريخ الوعي فالحادث التاريخي هو ما قام به الإنسان من إنجازات دفعته إلى التغيير والتطور وبالتالي الاختلاف ومن هذا سنتعرف عن العناصر الفاعلة في التاريخ.

ثانيا: عناصر الحضارة

تتضح صلة الحضارة بالتاريخ عند بن نبي من خلال أن المجتمع ليس عبارة عن عدد من الأفراد فقط بل اجتماع الأفراد وتعاونهم ومساهمتهم في موقف واحد وتوجه واحد من أجل هدف وغاية هادفة وعمل المجتمع هو تركيب مؤدي إلى شبكة من العلاقات الاجتماعية التي تصب في قالب هو الحضارة وهذه الأخيرة مكونة من أساسيات وعناصر ولا تكون إلا بها، ففي ما تتمثل عناصرها؟

1- الإنسان

تعتبر الصناعة مصطلح قديم استخدمه ابن خلدون في مقدمته، وقد قصد به بن نبي " **كل الفنون والقدرات والمهن وتطبيقات العلوم، ليشمل كل الوسائل الفنية التي تكسب الفرد والمجتمع القدرة على تحقيق مهام اجتماعية ومستلزمات معيشية في إطار فني صياغي يجسده العمل المستمد من العلم التخصص الذي يشمل فن الراعي كما يشمل فن العالم على السواء**"[1]. من هذا نجد بن نبي توصل إلى أن الإنسان هو سبب المرض ومصدر العلاج في الوقت نفسه لذا نجده بحث في أوضاعه الاجتماعية والنفسية والثقافية مراعيا الظروف المحيطة فالإنسان في نظره يغير مجتمعه من خلال إدراكه للقوانين الطبيعية التي تؤدي إلى التطور والتقدم.

[1]- فوزية بوريون: مالك بن نبي(عصره وحياته ونظريته في الحضارة)، دار الفكر، دمشق، سورية، ط1، 2010، ص 229.

نستنتج أن الحضارة بناء مركب واجتماع لثلاثة عناصر فهو يعتبر الإنسان محور الفاعلية بين العناصر الأساسية للحضارة، ويقول كذلك: " إن العمل الأول في طريق التغيير الاجتماعي هو العمل الذي يغير الفرد كونه (فردا) إلى أن يصبح شخصا وذلك بتغيير صفاته البدائية التي تربطه بالنوع إلى نزعات اجتماعية تربطه بالمجتمع"[1]. ويقول كذلك في هذا الصدد " **لو أننا وجدنا في مكان معين، في زمن معين، نشاطا متآلفا من الناس والأفكار والأشياء دلنا على أن الحضارة قد بدأت في هذا المجال وأن تركيبها قد تم فعلا (في عالم الأشخاص)**"[2] يقول كذلك: " **هذه العلاقات الخاصة بعالم (الأشخاص) هي التي تقدم الروابط الضرورية بين الأفكار والأشياء في نطاق النشاط المشترك الذي يقوم به مجتمع ما، واجتماع الأشخاص في أي ظرف ، في أي مكان هو التعبير المرئي عن هذا العلاقات في مجال معين من مجالات النشاط الاجتماعي**".[3]

من هذا فبن نبي يعتقد أن الإنسان لا بد أن ينتقل من ذاتيته إلى الفرد الاجتماعي الذي يشارك في المجتمع وذلك بمزج العوالم الثلاثة عالم الأشخاص وعالم الأشياء وعالم الأفكار، ومن هنا الإنسان يعد محور الفاعلية في حركة الحضارة وذلك بفضله باعتباره أحد عناصر الحضارة بل العنصر الرئيس لبناء الحضارة ولا يكون كذلك إلا إذا احتل مكانة في المجتمع ككائن اجتماعي يقوم بوظيفته ويؤدي ويبلغ رسالته.

كما يعتبر بن نبي أن حركة التاريخ هي تراكم للنشاط البشري المستمر والواعي وذلك من خلال تفاعل البنيات الثقافية والمادية والفكرية يقول بن نبي: " **يلزمنا أولا أن نفهم كيف يؤثر**

---

[1]– مالك بن نبي: ميلاد مجتمع، مصدر سابق، ص 28.

[2]– نفسه، الصفحة نفسها.

[3]– نفسه، ص 29.

الإنسان في تركيب التاريخ الذي درسنا قانونه في الفصل السابق ومن الملاحظ أنه في القرن العشرين يؤثر الفرد في المجتمع بثلاثة مؤثرات: أولا: بفكره، ثانيا: بعمله، ثالثا: بماله، وحاصل البحث أن قضية الفرد منوطة بتوجيه في نواحي ثلاثة: أولا: توجيه الثقافة، ثانيا: العمل، ثالثا: رأس المال"[1]. ومن هنا فالثقافة في نظره وسيلة التي تتم عن طريقها تغيير الإنسان العنصر الأول في نظرية الحضارة مما يجعل العنصرين الآخرين التراب والوقت ثانويين بصفتهما المجال الذي يتجلى فيه إبداع الإنسان.

يقول كذلك: " **فكل مفهوم من عالم المفهومات وكل شيء من عالم الأشياء وكل شخص من عالم الأشخاص باعتباره معادلة شخصية أنتجتها ظروف التاريخ، وشروط التطور، كل عينة بين هذه العينات هي منتوج حضارة**"[2]. من هذا يعتبر بن نبي أن التغيير مهمة الإنسان ووظيفته فوق الأرض ورسالته في الحياة فهو الذي يصنع التاريخ والذي يتحكم في حركة التاريخ، فالتاريخ مرتبط بالسلوك الاجتماعي ويقول كذلك بن نبي في هذا الصدد أيضا " **على أنني حينما أرى في حركة التاريخ حركة الإنسان وفي ركوده فإن ذلك يضعني أمام مشكلة تصنف تحت عنوان الفعالية، فعالية الإنسان في التاريخ**"[3]. ومن هذا فحضور الإنسان يتجلى في مدى فعاليته في المجتمع.

[1]– مالك بن نبي: شروط النهضة، مصدر سابق، ص 77.

[2]– مالك بن نبي: تأملات، مصدر سابق، ص 198.

[3]– نفسه، ص 129.

يقول كذلك: " **فالقضية إذن: ليست قضية أدوات ولا إمكانيات، إن القضية كانت في أنفسنا، إن علينا أن ندرس أولا الجهان الاجتماعي الأول وهو الإنسان، وليست السلال وغيرها، فإذا تحرك الإنسان تحرك المجتمع والتاريخ، وإذا سكن المجتمع والتاريخ**".[1]

ومن هنا فالتطور الحضاري يعتمد على الإنسان ودوره وفعاليته في المجتمع.

لقد قدم بن نبي تفسير للتاريخ بعد دراسة تحليلية نقدية لاتجاهات المفكرين الذين سبقوه في هذا المجال وكان دوما يربط ذلك بالعالم الإسلامي ومصادره فوجد أساس البناء الحضاري في الآية القرآنية الكريمة، قال تعالى: "**إن الله لا يغير ما بقوم حتى يغيروا ما بأنفسهم**"[2] فلا يمكن الاكتفاء بالإيمان فقط بل بإثبات صحة القاعدة في ضوء التاريخ، أي بفعالية الإنسان.

وكذلك يخلص بن نبي إلى أن إحياء عناصر الثقافة الإيجابية تكون بتربية الإنسان وتوجيهه على ضوء التفكير المنظم واتباع المنهج العلمي السليم، وممارسته الفعالية، سوف ينتج الفرد الاجتماعي المؤثر في الحياة والتاريخ معا ومنه بناء ومساهمة إلى الطريق المؤدي إلى الحضارة.

2- التراب

سنتعرف على العنصر الثاني للمركب الحضارة في نظر بن نبي حيث يرى كل ما على وجهها وفي باطنها من ثروات ولا يعني ولا يقصد بالتراب هنا في بحثه في خصائصه بقدر ما هو يبحث في قيمته الاجتماعية بكونه من العوامل الأساسية للبناء الحضاري، فكلما ارتفعت

[1]- مالك بن نبي: تأملات، مصدر سابق، ص 129.

[2]- سورة الرعد، الآية 11.

الأمة وتقدمت وارتقت حضارتها كلما ارتفعت قيمة التراب وكلما تخلفت الأمة تخلف وانحط ترابها يعني انخفض ثمنه.[1]

لقد اختار بن نبي مصطلح التراب وفضله على مصطلح المادة تفاديا للسبب الذي قد يسببه هذا الأخير والذي يعني مفهوما مقابلا للروح في علم الأخلاق ويعني مفهوما مضادا لمعنى الطاقة في مجال العلوم، كما يعني شيئا مناقضا للمثالية في مجال الفلسفة وقد اختار مفردة التراب عن قصد لما تحمله من دلالات اجتماعية تتعلق بناحية الملكية وتشريعاتها القانونية التي تتصل بتحقيق الضمانات الاجتماعية للفرد.[2]

ومن هنا فمفهوم التراب يتسع ليشمل دلالات المواد الخام في ظاهر الأرض وباطنها أي ثروات والتراب له صلة بالمجتمع والإنسان فالمجتمع بقدرته يمنح التراب القيمة الاجتماعية فيعتبر التراب عامل اجتماعي خاضع للتهيئة من طرف الإنسان .

3- الوقت

ويضيف مالك بن نبي العنصر الثالث المركب للحضارة وهو الوقت " **فالوقت هو العنصر الثالث في نظرية الحضارة وللوقت قيمة اجتماعية يمنحها له الإنسان، إذ يصير في أمر ما (ثروة) وفي آخر عدما**"[3] كما يعد بن نبي الوقت عاملا مؤثرا في الفكر والنشاط الإنسانيين وفي تكوين المعاني وتطوير الأشياء فلهذا يجب اغتنام الفرص من الحياة ويجب إدراك قيمة الوقت لأن الوقت إذا ضاع لا يمكن استرداده " **إن العملة الذهبية يمكن أن تضيع وأن يجدها المرء**

[1]- مالك بن نبي: شروط النهضة، مرجع سابق، ص 131.

[2]- فوزية بوريون: مالك بن نبي (عصره وحياته ونظريته في الحضارة)، مرجع سابق، ص 231.

[3]- نفسه، ص 232.

بعد ضياعها، ولكن لا نستطيع أي قوة في العالم أن تحطم دقيقة ولا أن تستعيدها إذا مضت"[1] من هذا فعلا فالوقت ثمين، كما يقال في الحكمة القائلة: الوقت كالسيف إن لم تقطعه قطعك.

كذلك يرى فيلسوفنا: بأن الوقت لا يكون عنصرا أوليا في بناء الحضارة إلا إذا تكيف مع المجتمع فيتحول إلى زمن اجتماعي تجري فيه جميع العمليات التالية: " **الصناعية والاقتصادية أو الثقافية باعتبارها ركيزة تقوم عليها سائر اطرادات هذه العمليات**"[2] من هذا فالمجتمع هو الذي يقوم في أي دورة حضارية بتكييف الوقت وتحويله إلى زمن اجتماعي يتماشى مع ظروف الإنسان.

لهذا فإن نقطة انطلاق في الحركة التاريخية والدورة في نظر بن نبي لا يكون إلا بالعناصر المادية الثلاثة: الإنسان والتراب والوقت يقول مالك بن نبي: " **إن القلم الذي يكتب هذه الكلمات مثلا والشخص الذي يكتبها والكلمات نفسها والورقة التي تكتب عليها كلها من نوع واحد من حيث تركيبها الاجتماعي ولكنني إذا ما حللت القلم بوصفة عينة، والصفحة التي يكتب فيها فإنني سأجد في العينتين كليهما ثلاثة عناصر مركبة: الإنسان، تراب والوقت**"[3] إلا أن هذه المعادلة لا تعطينا نتيجة إيجابية: " فإذا كان الإنسان المعاصر قد تمكن من استغلال التراب بشكل لم تشهده أية حقبة تاريخية سابقة، فإنه لم يختنق كما اختنق في هذا العصر وبالتالي: " **فاستغلال الإنسان للتراب والوقت لا يعطي بالضرورة حضارة حسب المعادلة: إنسان + وقت + تراب = حضارة، فقد يكون: إنسان + وقت + تراب = دمار، والوضع الصحيح للمعادلة هو:**

---

[1]– نقلا عن: العابد ميهوب، (الفكر التربوي عند مالك بن نبي)، مرجع سابق، ص 172.

[2]– نقلا عن جيلالي بوبكر: البناء الحضاري عند مالك بن نبي، دار المعرفة، ط1، 2010، ص 57.

[3]– مالك بن نبي: تأملات، مصدر سابق، ص 99.

إنسان متوازن = حضارة، ولما كان المسلم حتما متوازنا، تصبح صورة المعادلة كالآتي: إنسان مسلم = حضارة.[1]

كما أن لهذه المعادلة شروط معينة لكي تتفق مع سير التاريخ فالعناصر الثلاثة: الإنسان والتراب والوقت تحتاج إلى مركب رابع لهذه الحضارة وهو الدين.

4- الدين

يضيف بن نبي الفكرة المحفزة وهي الفكرة الدينية وأثرها في معادلة الحضارة والتي يعتبرها العنصر الرابع التركيبي للعناصر الثلاثة: الإنسان + التراب + الوقت، فتنبعث الحياة فيرى مالك بن نبي أن عنصر الدين هو العامل الرابع والمركب الأساسي للحضارة كما أنه يستشهد بالدور الذي لعبه الدين في بناء الحضارات وتشكلها من خلال تركيبه للعناصر الثلاثة فالدين الإسلامي هو أساس ظهور الحضارة الإسلامية وكذا الفكرة الدينية المسيحية هي التي صنعت الحضارة الغربية وكذلك فكرة (كوتاما) وأثرها بوصفها دينا فهي التي شيدت الحضارة البوذية وعليه فمشكلة التحضر والرقي لا تحل إلا بحل مشكلات عناصر الحضارة السالف ذكرها، فهو يعتبر العناصر الأربعة الإنسان والتراب والوقت والدين التي يسميها بالعدة الدائمة التي يعتبرها الزاد ورأس المال لرجل الفطرة في حركته لبناء الحضارة لذا لا يمكن بناء حضارة في غياب هذه العناصر والتي تعتبر المادة الأولية: المتمثلة في رجل يتحرك وتراب يستغل وكل هذا يجري في زمن محسوب وتحت فكرة دينية تركب هاته العناصر[2] يقول بن نبي في هذا الصدد أيضا: " **ولو سمح لي أن ألخص وجهة نظر عبرت عنها منذ ربع قرن لقلت: إنه ليس من الضروري ولا من الممكن أن يكون لمجتمع فقير المليارات من الذهب كي ينهض بالرصيد الذي لا يستطيع الدهر أن ينقص**

[1]- يوسف بوراس: الفكر السياسي عند مالك بن نبي، دار هومة، الجزائر، ص 263.

[2]- مالك بن نبي: تأملات، مصدر سابق، ص 201.

من قيمته شيئا الرصيد الذي وضعته العناية الإلهية بين يديه: الإنسان والتراب والوقت"[1] يقول كذلك " **وهكذا تحتمل فكرة "الحركة التاريخية" تفسيرات عدة فمؤرخ كوتينبي يقدم تفسيرها تأثيرا الوسط الطبيعي وعالم الاجتماع سيستطيع إذا هو اعتمد على تعاليم المدرسة الماركسية أن يغلب تأثير العامل الاقتصادي ولكنا نجد في التحليل الأخير أن آلية الحركة التاريخية إنما يرجع في حقيقتها إلى مجموع من العوامل النفسية الذي يعتبر ناتجا عن بعض القوى الروحية وهذه القوى الروحية هي التي تجعل من النفس المحرك الجوهري للتاريخ**"[2] لقد وقع بن نبي في خطأ حين سوى بين الدين الإسلامي وباقي الأديان المحرفة مضيفا لها الأفكار القديمة: بوذية وبراهية ... فهو بذلك عمم فكرته تأثير الجانب الروحي في تشكيل الحضارات.

[1]– مالك بن نبي: بين الرشاد التيه، مصدر سابق، ص 69.

[2]– مالك بن نبي: ميلاد مجتمع، مصدر سابق، ص 23.

المبحث الثالث: أطوار الدورة الحضارية في التاريخ ومشكلاتها

أولا: أطوار الدورة الحضارية في التاريخ

تقوم فلسفة عند مالك بن نبي على الحتمية التاريخية وتعاقب الدوري للحضارات حيث عددها بثلاث أطوار هي: طور الحضارة طور ما بعد الحضارة، وطور ما قبل الحضارة.

يقول بن نبي: " **فالتاريخ يبدأ بالإنسان المتكامل الذي يطابق دائما بين جهده وبين مثله الأعلى وحاجاته الأساسية، والذي يؤدي في المجتمع رسالته المزدوجة بوصفه ممثلا وشاهدا وينتهي التاريخ بالإنسان المتحلل بالجزء المحروم من قوة الجاذبية، بالفرد الذي يعيش في مجتمع منحل، لم يعد يقدم لوجوده أساسا روحيا أو أساسا ماديا**"[1] وينتهي التاريخ حتما ليبدأ تاريخ آخر.

يقول أيضا: " **يجب أن ينتهي التاريخ في نقطة ما كي يتجدد التاريخ من نقطة جديدة، يجب أن يكون هذا مفهوما وخاصة لدى الشباب ، يجب أن يفلس التاريخ، وأحيانا يجب أن تعلن الإفلاس كي نشعر الناس وخصوصا الشباب بأن هذا الإفلاس هو طريق البداية**"[2] ومن هنا: فالتاريخ يمر حتما بمراحل زمنية وهذه هي الدورة الحضارية الخالدة التي تخضع لها كل الحضارات في نظره، ولا يمكن لحضارة ما إلا وأن تمر بهذه المراحل.

---

[1]– مالك بن نبي: وجهة العالم الإسلامي، مصدر سابق، ص 33.

[2]– مالك بن نبي: دور المسلم ورسالته في الثلث الأخير في القرن العشرين، دار الفكر، ط1، 1991، ص 28.

يقول أيضا بن نبي: " **والتجارب العامة تؤكد أطوار الحضارات هذه، ولا تكاد حضارة ما تشذ عن هذه القاعدة**"[1] ومن هذا فالحضارة عند مالك بن نبي تمر بأزمنة وهي: مرحلة النهضة ومرحلة الأوج ومرحلة الأفول، وكل مرحلة تعرف بخصوصيات ترتبط بالطبيعة البشرية.

1- مرحلة الروح

وتعرف بمرحلة النهضة، فمرحلة الروح في نظر بن نبي تقوم على الفكرة الدينية حيث تقوم الفكرة الدينية بتنظيم غرائز الفرد لتتماشى مع مقتضيات الفكرة الدينية، فالحيوية الحيوانية التي تمثلها الغرائز بصورة محسوسة لم تلغى ولكنها انضبطت بقواعد نظام قانون الروح فيتحرر الفرد جزئيا من قانون الطبيعة المفطور في جسده- ومن أمثلة ذلك القانون الروحي حينما كان بلال تحت سوط العذاب يرفع سبابته، أحد، أحد، فقانون الروح تروض فيه الغرائز كذلك مثل : المرأة الزانية التي جاءت إلى رسول الله (ص) لتطلب إقامة حد الزنا عليها- فالإنسان يولد على الفطرة غير أن الدين هو الذي يتولى إخضاع غرائزه، وهذا ما يعرف في علم النفس الفرويدي بالكبت[2] فيبقى صراع بين الغرائز المكبوتة وبين الروح.

يقول مالك: " **إذن فكل القيم النفسية الزمنية التي تميز مستوى حضارة ما في وقت معين، ليست إلا ترجمة التاريخية لهذه العلاقة العضوية بين فكرة معينة كالإسلام مثلا والفرد الذي يمثل بالنسبة إليها السند المحسوس... وهو هنا المسلم**"[3] يعني من هذا هناك اطراد بين الفرد والفكرة الدينية فهذه الأخيرة تخضع غرائز الفرد بالضبط والتوجيه دون الإلغاء.

---

[1]- مالك بن نبي: شروط النهضة، مصدر سابق، ص 54.

[2]- نفسه، ص 67-68.

[3]- نفسه، ص 67.

يقول أيضا: " **إن دورة الحضارة تبدأ عندما تدخل فكرة دينية معينة في التاريخ أو عندما يدخل مبدأ أخلاقي معين على حد قول (كيسر لنج) كما أنها تنتهي حينما تفقد الروح نهائيا الهيمنة التي كانت لها على الغرائز المكبوتة أو المكبوحة الجناح**"[1] من هذا فنقطة انطلاق الدورة الحضارية يكون الإنسان في مرحلة سابقة على الحضارة وتبدأ الحضارة بظهور فكرة دينية في التاريخ وهذا في مرحلة الحضارة، أما أفول الدورة بفقدان الفكرة الدينية هيمنتها وإشعاعها ومنه تسلب من الإنسان حضارته فيكون في مرحلة ما بعد الحضارة.

2-**مرحلة العقل:** يرى بن نبي أنه تنشأ المشاكل المحسوسة في المجتمع نتيجة انتشار وتوسع الفكرة الدينية نتيجة لاحتياجات جديدة لإكماله وهذا بعد سيطرة الروح عن الغريزة كما رأينا في الطور الأول فتبدأ هذه الغريزة المكبوحة في حب التحرر من قيودها فأثناء مواصلة التاريخ سيره يستمر التطور في نفسية الفرد وفي البنية الأخلاقية فيظهر منعطف العقل ومنه التتبع في مستوى أخلاق المجتمع وفعاليته وذلك بنقصان إشعاع الفكرة الدينية وبذلك تفقد الروح سلطانها رويدا رويدا والغرائز تتحرر تبعا لها أي حسب ضعف إشعاع قانون الروح فيأخذ العقل مكانه في دورة التاريخ فتزدهر العلوم والفنون والصناعات علم (العلل) فيتجه الإنسان نحو الترف[2] وكذلك يربط مالك بين أوج الحضارة بتطور العلوم والفنون وبين بدء الأمراض الاجتماعية فيكون بذلك تحرر الغرائز المكبوتة على حساب القيم الإنسانية فتتمزق العلاقات الاجتماعية فيعتبرها بن نبي تحلل جزئي للمجتمع ومنه فسلطان العقل لا يملك السيطرة على الغرائز في مثل ما كان في عهد الروح.[3]

---

[1]- مالك بن نبي: شروط النهضة، مصدر سابق، ص 70.

[2]- نفسه، ص 69.

[3]- نفسه، الصفحة نفسها.

3- مرحلة الغريزة

أما طور الغريزة يبدأ في أواخر الطور الثاني، وتنتهي فيه الوظيفة الاجتماعية للفكرة الدينية وينتهي وميضها في مجتمع منحل يقول بن نبي: " **تستعيد الطبيعة غلبتها على الفرد وعلى المجتمع شيئا فشيئا وعندما يبلغ هذا التحرر تمامه يبدأ الطور الثالث من أطوار الحضارة، طور الغريزة التي تكشف عن وجهها تماما، وهنا تنتهي الوظيفة الاجتماعية للفكرة الدينية التي تصبح عاجزة عن القيام بمهمتها تماما في مجتمع ما منحل يكون قد دخل نهائيا في ليل التاريخ وبذلك تتم دورة الحضارة**"[1] من هذا فطور الغريزة هو مرحلة ضعف وانحطاط وذلك بفقدان المجتمع سيطرته على الأفراد.

وأيضا يقول مالك: " **والروح وحده هو الذي يتيح للإنسانية أن تنهض وتتقدم، فحيثما فقد الروح سقطت الحضارة وانحطت لأن من يفقد القدرة على الصعود لا يملك إلا أن يهوي بتأثير جاذبية الأرض**"[2] من هذا فنهاية الدورة تكون عندما ينهار البناء الاجتماعي وتصبح الرياح غير قادرة عن تحريكه، والعقل غير قادر على فهمه فتنقل بذلك الحضارة إلى بقعة أخرى أي هجرة الحضارة لتبدأ دورة جديدة.

ويقول بن نبي في هذا الصدد: " **حينما يصل التاريخ إلى مثل هذا المنعطف من دورة الحضارة، فإنه يصل إلى المنطقة التي تتصل فيها نهاية عهد ببداية عهد آخر**"[3] ومن هنا عندما تغيب الروح تتضاءل وتفكك الروابط الاجتماعية فيفقد العقل السيطرة فتسيطر الغريزة المكبوتة فتنهار الحضارة بالانحلال الخلقي لتبدأ دورة أخرى.

---

[1]- مالك بن نبي: وجهة العالم الإسلامي، مصدر سابق، ص 70.

[2]- المصدر نفسه، ص 31.

[3]- مالك بن نبي: شروط النهضة، ص 79.

كما أن مالك يرى بأن الطور الخالي من الروح والعقل هو المرحلة الأخيرة من الدورة ويطلق عليها اسم السياسة فلا يمكن تصور وجود حضارة بدون أن تمر بهذه المراحل فيعتبر بن نبي أن المجتمعات تتشابه في أطوارها ومثال ذلك المدينة الإسلامية والمسيحية فعند غياب الفكرة الدينية تغيب الحضارة بغياب الروح والعقل فبتخلف العوامل النفسية تتخلف الحضارة ومنه تختزن هذه العوامل في ساحة اللاشعور وعند فقدان إشعاع الروح والعقل تنطلق وتتحرر الغرائز لكي يعود الإنسان إلى الحياة البدائية.[1]

فمالك بن نبي هنا جعل للحضارة مراحل تقوم عليها هي الطور الأول الذي يمثل طور الروح المرتبطة بالفكرة الدينية إلى الطور الثاني فتفقد الروح نفوذها وهيمنتها ثم الطور الثالث وهو طور الغريزة وهنا تفقد الروح والعقل نفوذهما وسلطتهما وبهذا تفقد الفكرة الدينية إشعاعها وبهذا تنحل الحضارة وتسقط وتنهار.

ثانيا: مشكلاتها

قد اهتم مالك بن نبي بمشكلات الحضارة في جل كتبه واعتبر أن أعظم مشكلة في حياة الإنسان هي مشكلة الحضارة في حد ذاتها ومنه المشكلة مرتبطة بالذات وبعناصرها الأولية المكونة لها وبما يحيط بالإنسان وذلك باختلاف بيئته محيطه الخارجي، يقول بن نبي: " **إن المشاكل التي تحيط بالإنسان تختلف باختلاف بيئته، فالإنسانية لا تعاني مشكلة واحدة بل مشاكل متنوعة تبعا لتنوع مراحل التاريخ**"[2] ويقول أيضا في هذا الصدد: " **إن مشكلة كل شعب هي في جوهرها مشكلة حضارته، ولا يمكن لشعب أن يفهم أو يحل مشكلته ما لم يرتفع بفكرته إلى الأحداث الإنسانية**".[3]

---

[1]- مالك بن نبي: شروط النهضة، مصدر سابق،ص 53-54.

[2]- نفسه، ص 75.

[3]- نفسه، ص 19.

فإذا كانت مشكلة الإنسان: هي الحضارة من حيث شروط بنائها وأسباب هدمها فالمشكلة تتفرع إلى مشكلات البناء والمحيط من مكان لآخر ومن مرحلة تاريخية إلى أخرى وبالتالي المشكلات المتفرعة عن مشكلة الحضارة هي نفسها مشكلات عناصر بنائها فهو يحدد مشكلة الإنسان من خلال أن الإنسان باستطاعته بناء الحضارة والمحافظة عليها يقول بن نبي: " **يجب أولا أن نضع رجالا يمشون في التاريخ، مستخدمين التراب والوقت والمواهب في بناء أهدافهم الكبرى**".[1]

لذا يجب التركيز على عنصرها الأساسي والقيادي فالفرد يؤثر في مجتمعه بثلاث مؤثرات، بفكره وبعمله وبماله وبالتالي يجب توجيهه في هذه الجوانب الثلاث: توجيه الثقافة وتوجيه العمل وتوجيه المال.

يقول مالك: " **قلنا إن حل مشكلة الإنسان يتكامل في ثلاثة عناصر أساسية هي توجيه الثقافة وتوجيه العمل وتوجيه رأس المال**".[2]

أ–فتوجيه الثقافة للفرد من أجل أن يكون الفرد إيجابيا داخل المجتمع فتشمل الثقافة على الجوانب الخلقية والجمالية والمنطق العملي وكذلك الصناعة بتعبير ابن خلدون يقول: " **وفي هذا المركب الاجتماعي للثقافة ينحصر برنامجنا التربوي، وهو يتألف من عناصر أربعة، يتخذ منها الشعب دستور لحياته المثقفة**

1- **عنصر الأخلاق لتكوين الصلات الاجتماعية.**
2- **عنصر الجمال لتكوين الذوق العام.**
3- **منطق عملي لتحديد أشكال النشاط العام.**

[1]– مالك بن نبي: شروط النهضة، مصدر سابق، ص 75.
[2]– نفسه ، ص 106.

4- **الفن التطبيقي الملائم لكل نوع من أنواع المجتمع أو (الصناعة) حسب تعبير ابن خلدون".**[1]

ب-كما يعتبر أن توجيه العمل هو الحلقة الثانية من مشكلة الإنسان لذا يقول: " **فتوجيه العمل هو تأليف كل هذه الجهود لتغيير وضع الإنسان وخلق بيئته الجديدة**"[2] كما يقول في هذا الصدد: " **إن توجيه العمل في مرحلة التكوين الاجتماعي بعامة يعني سير الجهود الجماعية في اتجاه واحد بما في ذلك جهد السائل والراعي وصاحب الحرفة والتاجر والطالب والعالم والمرأة والمثقف والفلاح لكي يصنع كل منهم في كل يوم لبنة جديدة في البناء**"[3] ومن هنا فابن نبي يشترط في توجيه العمل أن يكون توجيه منهجي وعام ثم يصبح وسيلة بعد ذلك.

3- أما فيما يخص توجيه رأس المال: يقول بن نبي: " **دراسة هذه المشكلات دراسة خاصة وبالتالي تحديد رأس المال ذاته في زاوية أخرى باعتباره آلة اجتماعية تنهض بالتقدم المادي، لا آلة سياسية في يد فئة رأسمالية، كما عالجها ماركس ومدرسته**".[4]

كما يرى بن نبي أن الثروة تلقب بصاحبها أما رأس المال فإنه ينفصل عن صاحبه فهو قوة مالية مجردة تختلف عن الثروة، فتوجه رأس المال قد ظهر مع ظهور الصناعات الميكانيكية وهذا ما أتاح للمال لأن يكون له دورا كبيرا من بلد لآخر بإقامة العلاقات الاقتصادية وبهذا يخلق المال حركة ونشاط فتوجه رأس المال لا يصل بالكم أولا بل بالكيف"[5].

---

[1]- مالك بن نبي: شروط النهضة، مصدر سابق، ص 87.

[2]- نفسه، ص 108.

[3]- نفسه، ص 107.

[4]- نفسه، ص 110.

[5]- نفسه، ص 111-112.

ويقول كذلك: " **فالقضية ليست كما بينا في تكديس الثروة ولكن في تحريك المال وتنشيطه، بتوجيه أموال الأمة البسيطة، وذلك بتحويل معناها الاجتماعي من أموال كاسدة إلى رأس مال متحرك، ينشط الفكر والعمل والحياة في البلاد**"[1].

لذا يجب التخطيط المناسب لحياة اقتصادية أفضل لكي لا تبقى الأموال في أيدي فئة قليلة يقول: " **تستغل السواد الأكبر من الشعب بل يجلب أن يتوفر في إسهام الشعب مهما كان فقيرا وبذلك يتم التعادل بين طبقات المجتمع وتنسجم مصطلحة الجماعة مع مصلحة الفرد**"[2].

-**مشكلة التراب:** إذا كانت مشكلة الحضارة الأولى هي مشكلة الإنسان فالتراب هو المشكلة الثانية ولا نقصد من التراب مجرد مادة بل التراب كنوع ومن حيث قيمته ووظيفته الاجتماعية فقيمة التراب تكون باهضة أو دنيئة بقدر تحضر الأمة وانحطاطها كما أن مشكلة التراب مرتبطة في الأساس بمشكلة الإنسان في حد ذاته لامتلاكه هذا التراب فالتراب مادة جامدة لا تتحرك إلا إذا حركتها أيدي بارعة ذات توجيه سليم يقول بن نبي: " **إن التراب في أرض الإسلام عموما على شيء من الانحطاط بسبب تأخر القوم الذين يعيشون عليه، ذلك أن الأرض الزراعية في بلاد كالجزائر مثلا: بدأت تتقهقر رويدا أمام غزو الصحراء**".[3]

ومن هذا فالإنسان له دور كبير في تحريك التراب وليس طبيعة التراب في حد ذاته فمثلا الياباني حسب توينبي استطاع أن يستغل الوظيفة الاجتماعية للتراب لوجود التحدي والاستجابة لديه رغم ضعف تربته فهي عبارة عن أرخبيل من الجزر ذات جبال وصخور.

---

[1]- مالك بن نبي: شروط النهضة، مصدر سابق، ص 113.

[2]- نفسه، ص نفسها.

[3]- نفسه، ص 131.

-**مشكلة الوقت:** إن المشكلة الثالثة من مشكلات الحضارة تتمثل في مشكلة الوقت، وترتبط هذه المشكلة في نظر بن نبي بمشكلة الإنسان فيقول: " **فالحياة والتاريخ الخاضعتان للتوقيت كان وما يزال يفوتنا قطارهما فنحن في حاجة ملحة إلى توقيت دقيق وخطوات واسعة لكي نعوض تأخرنا**".[1]

ولهذا يرى بن نبي أن موقف الإنسان من الوقت من خلال تحديده لقيمته الاجتماعية فهو يعمل على الدورين إما أن يكون عنصر بناء أو عنصر هدم وذلك بمقدار تقديس الإنسان للوقت واستغلاله في أحسن الأحوال وبهذا تحققت الوظيفة الاجتماعية للوقت ويصبح عنصر أساسيا في بناء المجتمع وتحريك التاريخ وتكوين الحضارة، وأفضل مثال أعطاه بن نبي: الألمان حينما تمكنوا من استعادة ما دمرته الحرب العالمية الثانية وفي وقت قياسي عشر سنوات واسترجعوا مكانتهم بين الدول المتحضرة ويعود الفضل في ذلك إلى تقديسهم للوقت ومضاعفة وقت العمل، وغيرها ، كما أن إدراك المسلمين في بداية نهضتهم لوزن الوقت واعتمادهم على مبدأ تقديس الوقت هو الذي دفع بالنهوض الحضاري لديهم[2] ومن هذا فاحترام الوقت وقدسيته لا يعني السرعة والتهور المؤدي إلى عدم الوصول إلى النتائج المرسومة، بل العمل الموجه .

لذا يقول بن نبي في عوامل النهوض الألماني: " **من بينها الاقتصاد في الجهاز الإداري، وفي تكاليف الإدارية فقد أصبح كثير من أعمال الحكومة يقوم به أفراد الشعب كواجب عليهم ولكن العامل المهم من هذه العوامل جميعها هو الزمن**"[3].

ومن هذا: بما أن المركب الأساسي بين العناصر الثلاث: الإنسان والتراب والوقت، هو الفكرة الدينية، وعناصر الحضارة هي نفسها مشكلاتها كما أن الحضارة في دورتها التاريخية تشهد

---

[1]- مالك بن نبي: شروط النهضة، مصدر سابق، ص 140.

[2]- نفسه، ص 140-141.

[3]- نفسه، ص 142.

ثلاثة أطوار: طور النهضة، والطور الأوج وطور الأفول، فمشكلات الحضارة لا تحل بالستيراد بل تستوجب حل ثلاث مشكلات جزئية.

يقول بن نبي: " – **مشكلة الإنسان وتحديد الشروط لانسجامه مع سير التاريخ.**

– **ومشكلة التراب وشروط استغلاله في العملية الجماعية.**

– **ومشكلة الوقت وبث معناه في روح المجتمع ونفسية الفرد**"[1].

[1]– مالك بن نبي: تأملات، مصدر سابق، ص 201.

الفصل الثالث :

تطبيقات نظرية مالك بن نبي في فلسفة التاريخ (نماذج)

المباحث:

- الحضارة الإسلامية
- الحضارة المسيحية الغربية
- مالك بن نبي في ميزان

تعتبر حركة التاريخ من أهم القضايا التي شغلت كثير من المفكرين في القرن العشرين منهم مالك بن نبي الذي اهتم بدراسة مشكلات الحضارة لهذا نجده تطرق في جل كتبه إلى قضايا عديدة في مجال الحضارة والتاريخ خاصة منها التراث الإسلامي لذا نجده معنونا كل كتبه (بمشكلات الحضارة). لقد درس بن نبي التاريخ الإسلامي بشكل عميق والحضارة المسيحية (الغربية) لذا قد انتهى إلى السر الغيبي والكوني الذي يركب العناصر الأساسية لبناء الحضارة: الإنسان والتراب والوقت من خلال القوة المحفزة الفاعلة في التاريخ وهو الدين فكل من الحضارتين الإسلامية والمسيحية في نظر بن نبي تنطلقان من الفكرة الدينية بل يتعدى الحضارتين المذكورتين سلفا إلى حضارات سجلها التاريخ كالحضارة البوذية والبراهمية فكل حضارة أساسها ديني وهذا ما أدرجناه في الفصل السابق، يقول مالك " لا يختلف تطور الحضارة المسيحية عن تطور الحضارة الإسلامية إذ هما ينطلقان من الفكرة الدينية التي تطبع الفرد بطابعها الخاص وتوجه نحو غايات سامية".[1]

من هنا يتضح أن بن نبي اهتم بدراسة الحضارتين الإسلامية والمسيحية ودرس مدى دور الفكرة الدينية في بناء الحضارة والتي تعتبر منطلقا ومحفزا ومركبا للعناصر الأساسية التي تشكل الحضارة.

لهذا فقد استطاع مالك بن نبي أن يقدم تحليلا لمراحل التاريخ وحركة وتطور المدينة وذلك من خلال دراسته للحضارتين المسيحية والإسلامية من خلال منهجين: المنهج التحليلي والمنهج التركيبي:

[1]– مالك بن نبي: شروط النهضة، مصدر سابق، ص 50.

1- **المنهج التحليلي:** إذ حلل الحضارة إلى عناصرها الأولية تعتبر الرأسمال الأولى وصاغها في شكل رياضية ذات متغيرات هي: الإنسان والتراب والوقت: إنسان + تراب + وقت = حضارة.

2- **المنهج التركيبي:** الذي من خلاله أن يكتشف القانون الذي تخضع له الحضارة في بنائها وهو ما أسماه بالتفاعل[1].

إذن: فما هو تفسير بن نبي في دراسته للحضارتين الإسلامية والمسيحية؟

المبحث الأول: الحضارة الإسلامية

لقد درس بن نبي التاريخ الإسلامي بشكل عميق وذلك بفضل قراءاته المتنوعة والكم الهائل من الكتب التي اطلع عليها في هذا الموضوع وتحديده للمنعرجات في التاريخ الإسلامي ملخصا ذلك في منحنى بياني موضحا فيه بداية ومنطلق الحضارة الإسلامية بظهور الفكرة الدينية والتي كانت في غار حراء وهي نقطة الانطلاق والنهضة ثم تليها مرحلة الأوج ثم الانحطاط والانكسار.

لذا يرى بن نبي أن جزيرة العرب كانت قبل نزول القرآن على سيد الخلق أجمعين عليه الصلاة والسلام عبارة عن شعب بدوي في صحراء قاحلة جدباء أناسها خاملة بمعنى أن العوامل مكدسة وخامدة وبالتالي لم تسجل حضورها في دورة التاريخ لكن بنزول الروح بغار حراء كما تجلت بالوادي المقدس (مياه الأردن) نشأت من هذه العناصر الخامدة حضارة جديدة، فكلمة اقرأ غيرت مجرى تاريخ جزيرة العرب وأدهشت النبي الأمي والعالم وأصبحت حضارة ساخبة بعطائها.

يقول بن نبي كذلك: " **وبتتبعنا لمسيرة هذا المجتمع منذ نشأته التاريخية المحددة بالتقويم الهجري، يمكن تكوين فكرة عن المراجل التي اجتازتها ولادتها النفسية الاجتماعية، في الأصل**

[1]- بدران بن مسعود بن الحسن: الظاهرة العربية في الوعي الحضاري، مرجع سابق، ص 87.

كان مجتمعا قبليا صغيرا يعيش في شبه الجزيرة العربية وفي عالم ثقافي محدود، حيث كانت معتقدات نفسها حول الأشياء لا حياة فيها غنها أوثان الجاهلية.[1]

كما يعتقد بن نبي أن نجاح الإسلام وتوسعه في شبه الجزيرة العربية راجع للفراغ الروحي: لذا يقول: " **إذا كانت المدينة الإسلامية قد جمعت المولدين في وقت واحد، فإن ذلك يعود إلى الفراغ الذي وجدته الفكرة الإسلامية في النفس العربية العذراء التي لم تنشأ فيها ثقافة ولا ديانة سابقة فخلا لها بذلك الجو**"[2] من هنا المولدين يقصد بهما ميلاد الفكرة الدينية ومدى تسجيل هذه الفكرة وتأثيرها في الأنفس البشرية.

أولا: مراحل الحضارة الإسلامية:

في نظر بن نبي أن الحضارة الإسلامية مرت بثلاثة مراحل وهي الروح والعقل والغريزة.

1. **مرحلة الروح:** يقول بن نبي: " **ففي المرحلة الأولى من مراحل الحضارة الإسلامية التي ابتدأت من غار حراء إلى صفين*** **وهي المرحلة الرئيسية التي تركبت فيها عناصرها الجوهرية غنما كانت دينية بحتة تسودها الروح**"[3] من هذا ففي هذه الفترة أصبحت روح المسلم هي العامل النفسي الأساسي من حراء إلى أن وصلت إلى القمة الروحية للحضارة الإسلامية غلى أن وصلت غلى واقعة صفين عام 38 هـ.

---

[1]– مالك بن نبي: مشكلة الأفكار في العالم الإسلامي، مصدر سابق ، ص 38.

[2]– مالك بن نبي: شروط النهضة ، مصدر سابق، ص 55.

*– صفين: تمثل نقطة تحول في تاريخ العالم الإسلامي (العهد الديموقراطي الإسلامي) انتهى مع انتهاء الخلفاء الراشدين أي مع واقعة صفين 38هـ. أنظر: مالك بن نبي. القضايا الكبرى، مصدر سابق، ص 162.

[3]– مالك بن نبي: شروط النهضة ، مصدر سابق، ص 52.

2. **أما مرحلة العقل:** التي مرت بها الحضارة الإسلامية يقول فيها بن نبي: " **ولست أدري لماذا لم ينتبه المؤرخون إلى هذه الواقعة التي حولت مجرى التاريخ الإسلامي، التي أخرجت الحضارة الإسلامية إلى طور القيصرية، الذي يسوده عامل العقل وتزينه الأبهة والعظمة في الوقت الذي بدأت تزهر فيه بوادر الفتور الدالة على أفول الروح**".[1]

ويقول في هذا الصدد: " **ولا عجب فإن كوارث التاريخ التي تميد بالشعب عن طريقة ليست شاذة ونحن نجد مثلها في الكارثة التي أصابت العالم الإسلامي في واقعة حنين، فأخرجته من جو المدينة الذي كان مشحونا بهدى الروح، وبواعث التقدم غلى جو دمشق حيث تجمعت مظاهر الترف وفتور الإيمان**".[2]

من هذا يتضح أن إشعاع الروح يتضاءل في هذه الحقبة وتكون بذلك سيطرة العقل.

3. **أما مرحلة الغريزة:** في هذه المرحلة يرى مالك بن نبي أن الحضارة الإسلامية خرجت من عمق النفوس فتوسعت وانتشرت فوق الأرض بما تبقى لها من مخزون روحي، حتى تضاءلت حيث بدأ العلم في تلك الفترة ينتشر، وبرز عدة فلاسفة وعلماء كالفارابي وابن سينا حتى ابن خلدون وبعد هذا الأخير تضاءلت وخمد إشعاع الحضارة الإسلامية وبدأ يغيب رويدا رويدا وبهذا فالحلقة الأولى تبدأ بظهور فكرة دينية فتسطع الحضارة ثم يتخافت هذا الإشعاع في مرحلة العقل ثم ينزل منحنى السقوط وتسمى المرحلة الخالية من الروح والعقل والغريزة.[3]

---

[1]– نفسه، ص 52.

[2]– نفسه، ص 47.

[3]– مالك بن نبي: شروط النهضة ، مصدر سابق، ص 53.

ثانيا: تطور المجتمع عند بن نبي:

يقسم بن نبي المجتمعات إلى ثلاثة وهي موازية للمراحل وهي:

مجتمع ما قبل الحضارة ومجتمع الحضارة ومجتمع ما بعد الحضارة

يرى بن نبي أن مرحلة ما قبل الحضارة: يكون فيها عالم الأشياء يكون شديد الفقر وتكون الأشياء فيه بدائية وعالم الأشخاص في المجتمع الجاهلي قد انحصر في حجم القبيلة أما عالم الأفكار يتمثل في القصائد المتألقة الشهيرة (المعلقات) لذا كان المجتمع العربي بدائي منغلق على نفسه حيث كانت تحدده الإمبراطورية البيزنطية من جهة والإمبراطورية الفارسية ومملكة الحبشة في الجنوب حتى جاءت الفكرة في غار حراء وظهر إشعاعها بكلمة اقرأ فمزقت هذه الكلمة ظلمات الجاهلية الحالكة، مشرقة بعالم جديد بالأشخاص ليبنى عالما ثقافيا تتمحور فيه الأشياء حول الأفكار الجديدة.[1]

كما أن مفكرنا مالك بن نبي وحمه الله يعتقد أن المجتمع له عمر مثل عمر الشخص فيقول في هذا الصدد: " **جمع خطوات المجتمع الجديد نحو عالم الأفكار أي نحو عمر الفكرة التي مرت عبر الأشخاص هذا أي عبر عمر الشخص هكذا يتوصل الاطراد في المجتمع كما في الفرد حتى نقطة الارتداد والانكفاء هنا تجمد الفكرة وتتجه المسيرة نحو الوراء إذ ينقلب المجتمع الإسلامي على أعقابه ليعود على اثر مراحل عوالمه الثلاثة**".[2]

[1]- مالك بن نبي: مشكلة الأفكار في العالم الإسلامي، مصدر سابق، ص 38-39-40.

[2]- نفسه، ص 40.

كذلك يقول: " **وعندما بدأت عملية اندماج المجتمع الإسلامي في التاريخ تأسس عالم الأشخاص فيه على نموذج أصلي يتمثل بطائفة الأنصار والمهاجرين**"[1]. من هذا فعالم الأشخاص يتمثل في الأنصار والمهاجرين.

كما مفكرنا انه بدا العد التنازلي بعد سقوط دولة الموحدين وقد سماه عصر ما بعد الموحدين[*] فعصر بن خلدون يسجل انقلاب القيم الإسلامية فقد اختلت السلطة العصبية محل الحكومة الديمقراطية الخلفية فخلقت هوة بين الدولة والضمير الشعبي وهنا فقد الإنسان المتحضر هماه المتحضرة وعجز الناس على تطبيق مواهبهم وإبداعاتهم الخاصة على التراب والوقت فيبدأ تاريخ الانحطاط الحضارة الإسلامية بإنسان ما بعد الموحدين بعهد ابن خلدون[*2] .

" **إذن فالحضارة الإسلامية انتهت منذ الحين الذي فقدت في أساسها قيمة الإنسان (أي شعورها في معنى الإنسان**".[3]

---

[1]- المصدر نفسه، ص 41.

[*]- عصر ما بعد الموحدين: يبدأ عصر ما بعد الموحدين بسقوط الدولة الموحدية بعد هزيمة الناصر لدين الله الموحدي في موقعة حصن العقاب في الأندلس في 15 صفر 609هـ وقد اعتبرت هذه الموقعة نذيرا بنهاية قوة المسلمين بالغرب والأندلس على السواء كما يقول مؤلف تاريخ الإسلام السياسي والديني والثقافي: اذ سقطت الدولة الموحدية التي أنشاها عبد المؤمن بن علي سنة (542هـ- 1130م) بعد أن بايعه المهدي بن تومرت اثر سقوط الدولة المرابطية ثم أبو يعقوب يوسف بن عبد المؤمن (1163- 1184). أنظر: مالك بن نبي: مشكلة الأفكار في العالم الإسلامي، مصدر سابق، ص 47.

[2]- مالك بن نبي: وجهة العالم الإسلامي، مصدر سابق، ص 35-36.

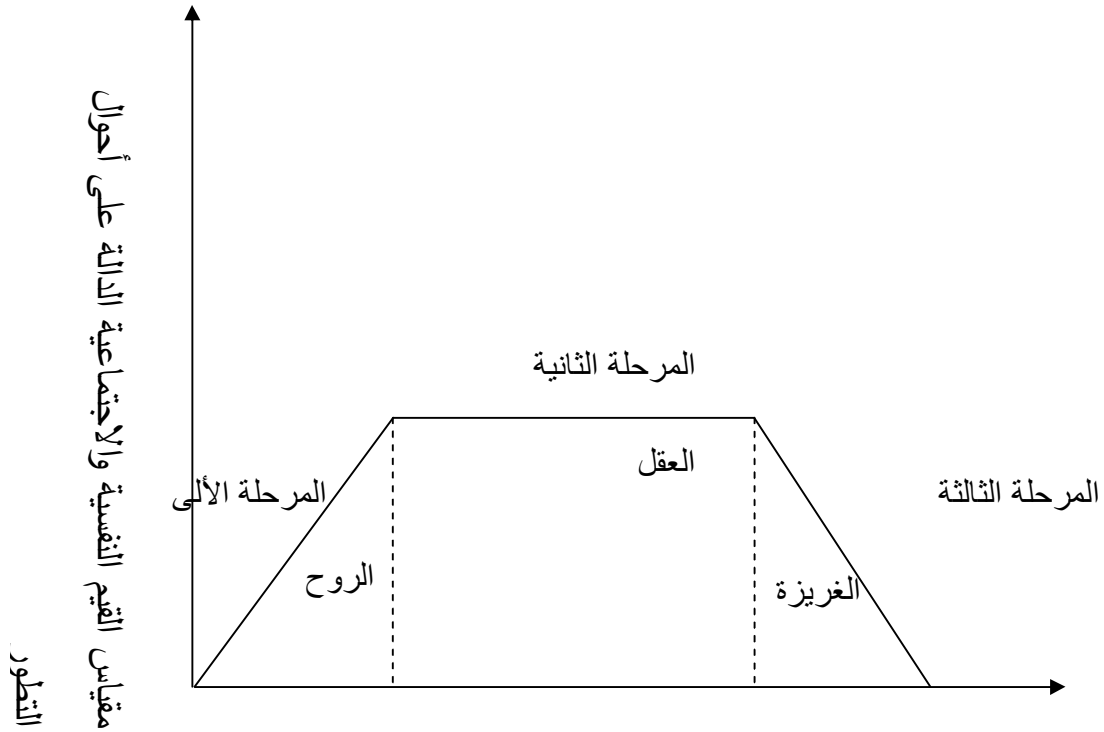

منحنى يمثل: المراحل النفسية والاجتماعية التي مرت بها الحضارة الإسلامية

1

ويقول : " **ومن المؤكد انه عندما تناول الحضارة الإسلامية لا بد من أن يدخل في أطرادها بالضرورة عاملان هما: الفكرة الإسلامية التي هي أصل الاطراد نفسه والإنسان المسلم الذي هو السند المحسوس لهذه الفكرة**"[2]. ومن هذا فإن هناك اطراد أي تتابع بين الفكرة الإسلامية أي الدين الإسلامي بينه وبين المسلم أي مدى قوة الإيمان ونقصانه في ذات الفرد المسلم فيؤثر فيه طبعا بالإيجاب أو السلب على حسب قوة الإيمان.

[1]– مالك بن نبي: وجهة العالم الإسلامي، مصدر سابق، ص 66.

[2]– مالك بن نبي: القضايا الكبرى، مصدر سابق، ص 163.

المبحث الثاني: الحضارة المسيحية (الغربية)

لقد حرص بن نبي واهتم بدراسة الحضارة المسيحية (الغربية) وهذا ما سنتعرف عليه في خضم هذا المحتوى فالغرب في رأي مفكرنا ليس مستثنى من قانون الدورة وإنما الحضارة الغربية ذاتها كاطراد تاريخي تأتي كعامل ثان في مقابل ختم النبوة على المستوى المعرفي[1] لهذا بن نبي يربط انتهاء قانون الدورة بحركة الحضارة وما وصلت إليه من امتداد في العالم.

فالحضارة المسيحية لم تلق الصدى بنفس قوة وصدى الحضارة الإسلامية في النفوس، فيقول مفكرنا رحمه الله: " **ولم يكن حظ الحضارة المسيحية في نفوس أهلها وبيئتها كحض الحضارة الإسلامية فقد نشأت المسيحية في وسط فيه خليط من الديانات ، والثقافات العبرية والرومانية واليونانية، فلم يتح لها أن تدخل إلى قلوب الناس وسط الزحام الفكري الثقافي، لتؤثر فيها تأثيرا فعالا، ولم يكتب أن تعمل عملها إلا عندما بلغت وسط البداوة الجرمانية في شمال أوروبا، حيث وحدت النفوس الشاغرة فتمكنت منها وبعثت فيها الروح الفعالة، التي اندفعت بها لتكون حلقتها في سلسلة التاريخ**"[2].

من هنا نستطيع القول بأن الحضارة المسيحية لم تلق نجاح راجع إلى أمور أخرى بإرادة المولى عز وجل وذلك بظهور آخر الكتب السماوية وهو القرآن وبديانة التوحيد وهو الإسلام والذي نزل على آخر الأنبياء وهو المصطفى عليه الصلاة والسلام كما أن ديانة المسيحية حرفت ولذا لم تلق النجاح وأن نجاح الإسلام يعود لأنه في لوح محفوظ.

---

[1]– بدران بن مسعود بن الحسن: الظاهرة الغربية في الوعي الحضاري، مرجع سابق، ص 85.

[2]– مالك بن نبي: شروط النهضة، مصدر سابق، ص 55.

أولا: مراحل الحضارة الغربية:

ويقول كذلك بن نبي: " **ومن المفيد أن أعزز هذا النظر برأي للمفكر (هارمان دي كيسرلنج) في كتابه البحث التحليلي لأوروبا حيث يقول ومع الجرمانيين ظهرت روح الخلقية سامية في العالم المسيحي**"[1] من هذا فهو يعني بالروح السامية هي الفكرة المسيحية فهذا المؤرخ كيسرلنج يعتقد بأن الحضارة العربية هي ثمرة امتزاج الروح المسيحية السامية مع التقاليد الجرمانية.

1- **مرحلة الروح:** كما يرى بن نبي ان المؤرخ (هنري بيرين) في كتابه بعنوان (محمد وشرلمان) بمقارنته بين الحضارتين الإسلامية والمسيحية هذا المؤرخ في نظر بن نبي أنه يرى في شخصية شرلمان التي بعثت مبدأ المسيحية في النفوس البكر، فأنبتت فيها الحضارة كما فعل ذلك تماما محمد صلى الله عليه وسلم فروح المسيحية لم تجد طابعها في فن المعمار إلا بتفاعلها مع القبائل الجرمانية وتمثلت بذلك في (المعبد القوطي) ويدل ارتفاعه وعلوه إلى علو الضمير الديني وطموحه الذي هز أوروبا من عهد الكارولنجان إلى عهد النهضة[2] ومن هذا تعتبر هذه هي مرحلة الروح للحضارة المسيحية.

أما مرحلة العقل: فتظهر من خلال مرحلة النهضة حيث خرجت أوروبا من مرحلة الروح والسمو إلى مرحلة التوسع العقلي يقول بن نبي: " **خرجت أوروبا من مرحلة السمو الروحي إلى**

[1]- مالك بن نبي: شروط النهضة، مصدر سابق، ص 55.

[2]- نفسه، ص 56.

مرحلة التوسع العقلي التي انطبعت بطابع ديكارت والتوسع في البلاد الذي حققه (كريستوف كولومبس*) باكتشاف أمريكا".[1]

ويرى مالك أن كتاب البحث التحليلي لأوروبا يوضح لنا تطور الحضارة الأوروبية ترتكز على روحها الدينية وان الروح تعتبر كعامل اجتماعي فغي في رأي مؤلف كتاب هي شعور القوة في الإنسان التي تصدر عنه مخترعاته وتصوراته وقدراته الخفية على إدراك الأشياء فالروح المسيحية ومبدأها الخلقي هما الأساس التي شيدت عليهما أوروبا سيادتها في التاريخ كما أن كيسرلنج يؤيد فكرة تطور الحضارة وتنوع العوامل النفسية، فمركز ثقل الحضارة تزحزح عن مكانه من النهضة والإصلاح الديني من الروح إلى العقل، فالتزحزح يشير إلى مرحلة جديدة للحضارة المسيحية في طورها العقلي.[2]

أما مرحلة الغريزة كما يرى بن نبي أن كيسرلنج يشير إلى المرحلتين الأوليتين كما أنه يرى مفكرنا إلى مرحلة الثالثة واضحة في كتاب أفول الغرب وفناء المدينة الأوروبية عند أزوالد اشبنجلر.[3]

كما أنه في نظر بن نبي أن ميلاد الحضارة الغربية كان بتسجيل الفكرة المسيحية في النفوس وهذا في قوله: " **إن الفكرة المسيحية قد أخرجت أوروبا إلى مسرح التاريخ، ولقد بنت عالمها الفكري انطلاقا من ذلك ومع عصر النهضة استعادت اكتشافها العالم الإغريقي،**

---

* – كريستوف كولومبس: (1461–1506) وهو بحار إيطالي من مدينة جنوى أبحر بحثا عن العالم الجديد 1493 وبعد فترة طويلة قضاها في عرض البحر بعيد عن اليابسة كاد البحارة يفقدون خلالها أي أمل للوصول للهدف المنشود
انظر: مالك بن نبي: مشكلة الأفكار، في العالم الإسلامي، ص 162.

[1] – مالك بن نبي: شروط النهضة، مصدر سابق، ص 56.

[2] – نفسه، ص 56–57.

[3] – نفسه، ص 57.

فتعرفت على سقراط باعث الأفكار وأفلاطون المؤرخ لتلك الأفكار وأرسطو* مشرعها غير أن هذا العالم الذي التقت به ثانية وهي تقتفي أثر الحضارة الإسلامية قد اكتسى منذ توماس الاكويني* صبغة مسيحية"[1] من هنا يتضح أن المسيحية في نظر بن نبي دافعا في تشكيل أوروبا ككيان حضاري له وجوده وحضوره في العالم، بالرغم مما أضيف لها من بعد إغريقي يوناني كما يعتبر توينبي من أصحاب هذه الوجهة بأن المسيحية مركب أساسي من مركبات الحضارة الغربية لذا ارتبطت المسيحية ارتباطا قويا بالحضارة الغربية.

كما يرى بن نبي أن المسيحية التي شكلت الغرب ليست هي مسيحية عيسى عليه السلام والحواريين، وإنما هي المسيحية التي نمت في أوروبا وسجلت وجودها النفسي في الغرب بعد ثلاثة قرون من تسجيلها في التاريخ وخضعت خلال ذلك كله إلى تشكيل خاص أدخل في تكوينها البعد الإغريقي واليهودي مما يمكن أن تسميها الفكرة الإغريقية اليهودية المسيحية.[2]

كما يقول: " **في هذا المجتمع ذي الفضائل الجذبية الأثرة التي سنت التعاون وجهلت سنة الضيافة، أودعت المسيحية (خميرة) التوسع الأخلاقي، الذي استخدم فيها ذريعة للحروب الصليبية وللمشاريع الاستعمارية**".[3]

---

* – أرسطو: فيلسوف يوناني (384–322ق.م) درس على يد أفلاطون كان يعتقد أن الفلسفة تنظم المعرفة البشرية بكاملها كان له اثر كبير في الفكر العالمي من الفلسفة العربية حتى الفلسفة المعاصرة أنظر مالك بن نبي، مشكلة الأفكار، مصدر سابق، ص 42.

* – توماس الاكويني: فيلسوف وعالم باللاهوت إيطالي (1227–1274) درس اللاهوت والفلسفة في عدة مدن أوروبية وخاصة في نابولي بإيطاليا حيث كانت تناقش أمهات المؤلفات الفلسفية الإسلامية، ترك العديد من الكتب التي يحاول فيها أن يوفق بين العقل والإيمان، بين عقائد المسيحية ونظريات أرسطو أنظر: مشكلة الأفكار في العالم الإسلامي، ص 42.

[1] – مالك بن نبي: مشكلة الأفكار في العالم الإسلامي، مصدر سابق، ص 41–42.

[2] – بدران بن مسعود بن الحسن: الظاهرة الغربية في الوعي الحضاري، مرجع سابق، ص 105.

[3] – مالك بن نبي: وجهة العالم الإسلامي، مصدر سابق، ص 40.

ثانيا: المركزية العالمية للحضارة الغربية:

كما يرى مفكرنا أن الفكرة المسيحية هي أساس تضخيم الأنا الأوروبي الفردي والجماعي كما ساعدت في التفوق الأوروبي الذي تشهده في القرن العشرين كما يرى هانتنجتون المسيحية الغربية الكاثوليكية أولا ثم البروتستانتية هي المميز التاريخي والملهم في الحضارة الغربية بل هانتنجتون يرى بأن الغربيين في القرن سادس عشر أنهم حينما انطلقوا في غزوهم للعالم كان من أجل الله ومن أجل الذهب.[1]

وهذا ما أشار إليه اشبنجلر باعتبار الحضارة ثمرة لعبقرية خاصة التي تهدف في ترسيخ الفكرة العنصرية ومبدأ التفاضل العرقي الذي عمل على تجسيدها فيما بعد.

كما أن بن نبي في نظره الحضارة المسيحية الحالية تسير سير الحضارة الإسلامية التي قد سبقتها في الزمن بمراحل لأن التاريخ يثبت ذلك إلا أنه يعتقد أن هناك أزمة تعترض الحضارة المسيحية فيقول: " **فنحن نعتبر الشيوعية (أزمة) للحضارة المسيحية هذا من الناحية التي تهمنا أكثر**".[2]

فالفكرة الدينية وإن فقدت قيمتها الغيبية وحضها فإنها تظل تعمل وتقوم بنفس الدور بواسطة بديلاتها اللا دينية مثل الماركسية.

وهذا ما حدث في الغرب عندما كانت المسيحية لا تملك بعدا غيبيا متماسكا، فإنها بقيت إطار أو بنية تحتية أنتجت الماركسية التي في حقيقتها دين بمفهومها العام، بما تقدمه من تفسير للنظرة الكونية، وبما تقدمه من وعود وبما قامت به من ربط ودفع نفسي لمعتنقيها، فالمادية إذا مفهومية دينية في حقيقتها حينما تطرح نفس بديلا للدين.[3]

---

[1]– بدران بن مسعود بن الحسن: الظاهرة الغربية في الوعي الحضاري، مرجع سابق، ص 103–104.

[2]– مالك بن نبي: شروط النهضة، مصدر سابق/ ص 54.

[3]– بدران بن مسعود بن الحسن: الظاهرة الغربية في الوعي الحضاري، مرجع سابق، ص 106.

غير أن الحضارة الغربية حققت على المستوى الاجتماعي التاريخي امتداد الحضارة لتشمل كل النطاق البشري بغض النظر عن إصدار أحكام قيمية حول هذا الامتداد أكان نافعا للبشرية أم لا أو أن الحضارة الغربية ذات قيم عالمية أولا.[1]

يعتبر مالك بن نبي أن الحضارة تحدث بسبب عاملين المعرفي والاجتماعي التاريخي، فالمستوى المعرفي كان مع ميلاد الرسالة الخاتمة رسالة الإسلام مع بعثة النبي الأمي وميلاد القيم العالمية معه.

وهذا يظهر: فالإنسانية التي تجاوزت المرحلة التاريخية الأولى أي مرحلة ما قبل الحضارة إلى مرحلة الحضارة، فإنها تسير الآن لتصير حضارة المجتمع العالمي بدل حضارة الوحدات التاريخية[2].

وكذلك إن الحضارة على المستوى المعرفي حققت عالمية قانونها مع النبوة، وحققت عالميتها على المستوى التاريخي وعلى المستوى الاجتماعي مع الامتداد الحضاري الغربي المعاصر الذي امتد ليشمل كل الإنسانية وتتأثر به من قريب أو من بعيد سلبا أو إيجاب.[3]

ولقد كان يهدف بن نبي من دراسته للحضارة الغربية وخصائصها إلى: البحث عن حل سنني لمشكلات العالم الإسلامي، يضعه في إطاره الإنساني، ولا يغفل عن الحقيقة الموضوعية التي تسير بها منطق التاريخ[4].

---

[1]- بدران بن مسعود بن الحسن: الظاهرة الغربية في الوعي الحضاري، مرجع سابق ، ص 84.

[2]- نفسه، ص 82.

[3]- نفسه، ص 85.

[4]- نفسه، ص 176.

المبحث الثالث: مالك بن نبي في الميزان

لا شك أن وزن المفكر أو الفيلسوف من بين المفكرين والفلاسفة يصنعه فكره وتحدده فلسفته و" بن نبي" يعد من هؤلاء لذا ذكرته نظريته في الحضارة، وامتاز بمكانة مرموقة فتألق إشعاعه في سماء الحركة الإصلاحية في العالم الإسلامي المعاصر وذاع صيته في العالم وأصبح من كبار قادة ورواد الفكر الفلسفي في القرن العشرين، لذا اعتنى بفكره العديد من الباحثين، لهذا نجد بعضهم يدرس ويبحث ويدافع والبعض الآخر ينتقد ويقوم.

أولا: تقويم بن نبي:

فمفكرنا اعتنى بمسألة الحضارة والتفسير الحضاري للتاريخ فلاحظ بن نبي رحمه الله أن مشكلة العالم الإسلامي هي مشكلة حضارة بل إن المشكلات التي يعاني منها الإنسان في عصره وانتبه بذلك للمشكلة الكبرى في حياة الإنسان هي مشكلة حضارته، يقول: " **إن مشكلة كل شعب هي في جوهرها مشكلة حضارته، ولا يمكن لشعب أن يفهم أو يحل مشكلته ما لم يرتفع بفكرته إلى الأحداث الإنسانية، وما لم يتعمق في فهم العوامل التي تبني الحضارات أو تهدمها**".[1]

لذا نوه إلى البحث في الحضارة لمعرفة شروط قيامها وعوامل انهيارها فدرس التاريخ الإنساني بشكل عام والتاريخ الإسلامي بشكل خاص.

كما أنه حسب أحد المفكرين المقربين لمالك بن نبي رحمه الله : محمد المبارك، بأنه: " **ليس مفكرا وصاحب نظرية فلسفية في الحضارة فحسب بل داعيا مؤمنا يجمع بين نظرة الفيلسوف المفكر ومنطقه وحماسة الداعية المؤمن وقوة شعوره، وإن أثاره الحقيقية تحوى تلك الدفعة المحركة التي سيكون لها في بلاد العرب أولا وفي بلاد الإسلام ثانيا أثرها المنتج وقوتها**

[1]– مالك بن نبي: شروط النهضة، مصدر سابق، ص 19.

الدافعة وقلما استطاع كاتب مفكر أن يجمع بين سعة الإطار والرقعة التي هي موضوع البحث وعمق النظر والبحث والقوة الإحساس والشعور إنه ينهل من نفحات النبوة ومنابع الحقيقة الخالدة".[1]

ويقول عنه كذلك الأستاذ أنور الجندي: " **مالك بن نبي يختلف عن الدعاة المفكرين والكتاب فهو فيلسوف أصيل له طابع العالم الاجتماعي الدقيق الذي أتاحت له ثقافته العربية والفرنسية أن يجمع بين علم الحرب وفكرهم المستمد من القرآن والسنة والفلسفة والتراث العربي الإسلامي الضخم وبين علم الغرب وفكرهم المستمد من تراث اليونان والرومان والمسيحية".**[2]

ثانيا: نقد الإطار الحضاري لابن نبي:

تعرض فكر بن نبي كغيره من المفكرين إلى انتقادات عديدة من قبل النقاد والباحثين، ومن بين المعالم التي لقيت انتقادات هي نظرية الحضارة فهي نظرية ذات طابع شمولي في عناصرها ومبادئها وأهدافها ارتبطت بالعالم الإسلامي المتخلف وبالعالم الأوروبي المتحضر وما تميز به المسلم من تخلف وقابلية للاستعمار، حيث وقع بن نبي فيما وقع فيه ابن خلدون حيث استخلص القوانين من واقع وتاريخ العرب والمسلمين وعممها على كافة الشعوب والفترات التاريخية، ويظهر تأثره بابن خلدون في تحديده لأعمار الحضارة وأطوارها فهو لم يفعل شيئا سوى أنه استبدل كلمة الدولة في الفكر الخلدوني بالحضارة في نظريته، رغم انتقاده لابن خلدون في هذه المسألة.

[1]– نقلا عن: جيلالي بوبكر، البناء الحضاري عند مالك بن نبي، مرجع سابق، ص 149.

[2]– المرجع نفسه، ص 150.

لكن ما يثير التساؤل في قانون الدورة الذي بين بن نبي تحليله وتفسيره لحركة الحضارة في التاريخ هو أنه مرة يجعل هذا القانون أبديا وسنة ثابتة تحكم حركة التغيير الحضاري، ومرة أخرى يذكر أن قانون الدورة قد انتهى مع بعثة النبي صلى الله عليه وسلم[1] وهذا ما يجعلنا نتساءل عن وجه الاختلاف بين الأمرين.

يذهب محمد محمد حسين إلى نقد منظور مالك بن نبي في دور الدين في الحضارة، إذ يرى مالك في منظوره لطبيعة تأثير الدين في الأنفس فيتصورها كأنها تنبعث من فراغ أو في أحسن تقدير من عقيدة التوحيد: " **فعلنا إذا أردنا أن نعرف السر الكامن وراء هذه القوة الروحية التي نبحث في مبادئ أخرى غير مبدأ التوحيد ومهما أوغلنا في الحديث عن القيم الغيبية في الدين ودورها في إثارة القوة الروحية فإننا لن نظفر قيمته الاجتماعية**"[2] من هذا بن نبي يرى بأن التوحيد فقط هو أساس ومنبع الإيمان عند المسلمين وملهمهم فقدرة الدين عند بن نبي تبدو في تنظيم الغرائز للأفراد وذلك من أجل تشييد الحضارة.

كما يذهب غازي التوبة إلى نقد مالك بن نبي لنظريته الحضارة وتحديدا لمعادلة الحضارة، حيث يجعلها كالتالي: إنسان مسلم = حضارة، بعد أن لاحظ " **أن الإنسان هو مقياس الحضارة لأنه أثمن ما في الحياة، فصلاح الحضارة وفسادها يقاسان بمدى النفع والضرر به**"[3] أما عنصري الوقت والتراب هما أدوات بيد الإنسان.

وبالتالي: " **فاستغلال الإنسان للتراب والوقت لا يعطي بالضرورة الحضارة حسب المعادلة: إنسان + وقت + تراب = حضارة، فقد يكون إنسان + تراب + وقت = دمار، والوضع الصحيح**

[1]– بدران بن مسعود بن الحسن: الظاهرة الغربية في الوعي الحضاري، مرجع سابق، ص 81.

[2]– آمنة تشيكو: مفهوم الحضارة عند مالك بن نبي وأرلوند توينبي، المؤسسة الوطنية للكتاب، ط1، الجزائر، ص 139.

[3]– نفسه، ص 141.

للمعادلة هو: إنسان متوازن = حضارة، ولما كان المسلم حتما متوازنا تصبح المعادلة كالآتي: إنسان مسلم = حضارة"[1].

والباحث يتفق مع ما ذهبت إليه الأستاذة آمنة تشيكو عندما لاحظت إغفال الأستاذ غازي التوبة لعنصر الدين الذي وضعه مالك بن نبي كوكب لعناصر الحضارة[2] ومن هنا فإن بن نبي ينظر للحضارة نظرة واقعية.

وعلى العموم أن ما لقيه فكر بن نبي من انتقادات هذا إن دل على شيء فهو يدل على أن فكره يشكل بحق فلسفة تستحق البحث والدراسة والتقويم زيادة لها وإثراء للفكر العربي الإسلامي الحديث والمعاصر ولا يحط من أنه فيلسوف الحضارة والتاريخ لأنه استطاع أن يقدم نظرية في الحضارة ورؤية جديدة للتاريخ فيها تحددت عناصر ومراحل الدورة الحضارية في التاريخ وكان تشييدها من خلال فكر جمع بين قوة الإسلام وسماحته وقوة التاريخ وتجارب السابقين وقوة الحضارة الغربية، لذا نستخلص من دراستنا لأفكار بن نبي حول الحضارة وسير التاريخ أنه فيلسوف والمفكر الناقد والمصلح يحتل فكره مكانة بارزة وساطعة في الفكر العربي والإسلامي من أجل النهوض الحضاري إن مالك بن نبي رحمه الله يمثل بحق رائد وفيلسوف الحضارة ومن بين دعاة الإصلاح والتجديد.

[1]– آمنة تشيكو: مفهوم الحضارة عند مالك بن نبي وأرلوند توينبي، ص 141.

[2]– نفسه، ص 142.

خاتمة

خاتمة :

لقد سلطنا الضوء على أهم أفكار بن نبي الحضارية من خلال هذا العرض الذي تطرقنا إليه، نستنتج أن المفكر وفيلسوف الحضارة والتاريخ مالك بن نبي عالج مشكلات الحضارة خاصة في العالم الإسلامي.

لهذا كان الغرض من هذه الدراسة التعرف على تفسير حركة التاريخ عند مالك بن نبي ابتداء من التفسيرات السابقة المؤثرة في فكره، من خلال تفسير ابن خلدون لسير حركة التاريخ، ومن خلال التعاقب الدوري والتفسير العضوي لاشبنجلر والتحدي والاستجابة لأرلوند توينبي، بالإضافة للكم الهائل والرصيد المعرفي الذي تحصل عليه من المحفز العربي الإسلامي، ومعايشته للاستعمار ومعاناته في الحياة من جهة والمحفز الغربي من جهة أخرى، وذلك لدراسته في فرنسا.

لقد عالج بن نبي مشكلات العالم الإسلامي بصفة عام والجزائر بصفة خاصة، لذا اهتم بالحضارة فكانت معظم مؤلفاته تندرج تحت عنوان مشكلات الحضارة.

لذا فابن نبي أقام فكرة التاريخ في حركيتها في ضوء القرآن الكريم وذلك برسم العوالم الأساسية لهذه الحركة التاريخية في الحضارة والمتمثلة في النشاط المشترك لكل من عالم الاشخاص وعالم الأفكار وعالم الأشياء.

فابن نبي أعطى تفسيرا أوسع وأشمل مما اعطاه بن خلدون لأن ابن خلدون لما درس التاريخ كتطور مجتمع معين، هو مجتمع المغرب الإسلامي، بقيت فكرته ضيقة، أما مالك بن نبي يأخذ بمراحل ثلاث في الدورة الحضارية إلا أنه يعطيها تفسير بيولوجي بقدر ما يعطيها تفسيرها الاجتماعي كما نأتي على تتبع عناصر الحضارة الإنسان هو الفاعل الحقيقي لأي انتاج، والتراب إذ من التراب كل شيء على الأرض وما في باطنها، والزمن له قيمة اجتماعية يمنحها له الإنسان فاجتماع هذه العناصر تنتج حضارة ولكن لا تجتمع هذه

العناصر إلا بوجود الفكرة الدينية وهي المحفزة والمركبة، لذ ا حلل بن نبي قيام الحضارات وأسباب سقوطها مقدما بذلك معادلة بناء الحضارة من خلال العناصر: الإنسان + تراب+ وقت = حضارة، أذن فالعدة الدائمة تظم الإنسان والتراب والوقت والفكرة الدينية، كما أنه قسم الحضارة إلى مراحل وهي:

- مرحلة الروح: والتي تظهر بظهور الفكرة الدينية، فهي في الحضارة الإسلامية تلك الفترة التاريخية التي بدأت مع نزول أول أية من القرآن الكريم واستمرت حتى معركة صفين 37 هـ:.

- يستفيد بن نبي من دراسة التاريخ وتجارب الأمم فمرحلة العقل لا يمثلها على محور الزمن العصر العباسي للحضارة الإسلامية وحسب، وإنما يمثلها أيضا عصر ما يسمى بالديكارتية والتنوير وهي مرحلة عقل الحضارة الأوربية .

- أما مرحلة الغريزة في الحضارة هي الطور الحضاري الذي ينبئ عن مجتمع سماه بن نبي مجتمع ما بعد الحضارة.

استطاع من خلال مراحل الحضارة: الروح والعقل والغريزة وعلاقتها ببعضها كتفسير للحرية التاريخية.

إذن فلسفة التاريخ عند مالك بن نبي تقوم على الحتمية التاريخية والتعاقب الدوري للحضارات من خلال أطوار الحضارة فحركة التاريخ مرتبطة بحركة الإنسان وفعاليته في المجتمع، لهذا الإنسان هو الذي يحرك التاريخ ضمن حتمية تاريخية تستوجب التحرر منها وذلك بمعرفة القوانين التي تنشء الحضارات.

قائمة المصادر

والمراجع

المصادر والمراجع

أولا: القرآن الكريم

ثانيا: كتب مالك بن نبي

1. مالك بن نبي: القضايا الكبرى، دار الفكر، دمشق، سورية، ط1، 2000.
2. مالك بن نبي: بين الرشاد والتيه، تر: عمر كامل مسقاوي، وعبد الصبور شاهين، ندوة مالك بن نبي، دار الفكر، دمشق، سورية، 1986.
3. مالك بن نبي: تأملات، اشراف ندوة مالك بن نبي، دار الفكر، دمشق، سورية، ط2، 2002.
4. مالك بن نبي: دور المسلم ورسالته في الثلث الأخير من القرن العشرين، الملكية للإعلام، الجزائر، ط2، 1991.
5. مالك بن نبي: في مهب المعركة (إرهاصات الثورة)، اشراف ندوة مالك بن نبي، دار الفكر، دمشق، ط 4، 2002.
6. مالك بن نبي: مذكرات شاهد القرن، الطفل والطالب، اشراف ندوة مالك بن نبي، دار الفكر، بيروت، ط 31، 1993.
7. مالك بن نبي: مشكلة الأفكار في العالم الإسلامي، تر: بسام بركة، أحمد شعبو، اشراف عمر مسقاوي، دار الفكر، دمشق، سورية، ط2، 2002م.
8. مالك بن نبي: ميلاد مجتمع (شبكة العلاقات الاجتماعية)، تر: عبد الصبور شاهين، اشراف ندوة مالك بن نبي، الملكية للإعلام، الجزائر، ط3، 1986.
9. مالك بن نبي: وجهة العالم الإسلامي: تر: عبد الصبور شاهين، اشراف ندوة مالك بن نبي، دار الفكر، دمشق، سورية، ط2، 2002.

ثالثا: المراجع

1. أحمد محمود صبحي: في فلسفة التاريخ، مؤسسة الثقافة الجامعية، الإسكندرية، 1975.

2. أرنولد توينبي: مختصر دراسة للتاريخ، ج4، ترجمة: فؤاد محمد شبل، المركز القومي للترجمة، الجزيرة، القاهرة، 2011.

3. آمنة تشيكو: مفهوم الحضارة عند مالك بن نبي وأرلوند توينبي، المؤسسة الوطنية للكتاب، ط1، الجزائر، 1989.

4. بدران بن مسعود: الظاهرة الغربية في الوعي الحضاري (أنموذج مالك بن نبي)، مكتبة مؤمن قريش، ط1، الدوحة، قطر، ط3، 2000.

5. حسين مؤنس: الحضارة (دراسة في أصول وعوامل قيامها وتطورها)، عالم المعرفة، الكويت، ط2، 1998.

6. رأفت غنيمي الشيخ: فلسفة التاريخ، دار الثقافة، القاهرة، 1988.

7. زينب الخضيري: فلسفة التاريخ عند ابن خلدون، دار الثقافة، القاهرة، ط1، 1989م.

8. عبد الحليم عويس: فلسفة التاريخ (نحو تفسير إسلامي للسنن الكونية والنواميس الاجتماعية) دار الصحوة، القاهرة، ط 1، 2011م.

9. عماد الدين خليل: التفسير الإسلامي للتاريخ، دار العلم للملايين، بيروت، لبنان، ط5، 1991.

10. جيلالي بوبكر: البناء الحضاري عند مالك بن نبي، دار المعرفة، الجزائر، 2010.

11. فوزية بوريون: مالك بن نبي(عصره وحياته ونظريته في الحضارة)، دار الفكر، دمشق، سورية، ط1. 2010.

12. مفيد الزيدي، مدخل إلى فلسفة التاريخ، دار المناهج، عمان، الأردن، ط 1، 2006.

13. يوسف بوراس: الفكر السياسي عند مالك بن نبي، دار هومة، الجزائر، 2013.

14. رابعا: الموسوعات:

1. عبد الرحمان بدوي: موسوعة الفلسفة، المؤسسة العربية للدراسات والنشر، ج1، ج 2، ط 1، بيروت، 1984.

2. فؤاد كامل وآخرون: الموسوعة الفلسفية المختصرة، إشراف: زكي نجيب محمود، دار القلم، بيروت، لبنان.

خامسا: المعاجم:

1. ابراهيم مدكور: المعجم الفلسفي، مجمع اللغة العربية، الهيئة العامة لشؤون المطابع الأميرية، القاهرة، 1983.

2. جميل صليبا: المعجم الفلسفي، دار الكتاب اللبناني، بيروت، لبنان، ج 1، ج2، 1982.

3. مراد وهبة: المعجم الفلسفي، دار قباء الحديثة، مدينة نصر، القاهرة، 2007.

4. مصطفى حسيبه: المعجم الفلسفي، دار أسامة للأردن للنشر والتوزيع، عمان، ط 1، 2009.

سادسا: المذكرات:

1. جمال بروال: الدورة الحضارية بين فكر مالك بن نبي وأزوالد شبنلجر، مذكرة ماجستير في فلسفة الحضارة، كلية العلوم الإنسانية والاجتماعية والاسلامية، جامعة الحاج لخضر باتنة، الجزائر، 2013/2012.

2. حسن محمد العقبي: مالك بن نبي وموقفه من القضايا الفكرية المعاصرة، رسالة ماجستير، الجامعة الإسلامية، كلية أصول الدين، غزة، 2005.

3. العابد ميهوب: الفكر التربوي عند مالك بن نبي، رسالة دكتوراه، جامعة محمد خيضر، كلية العلوم الاجتماعية والإنسانية بسكرة، الجزائر، 2013/ 2014.

4. مسعود بعيش، فلسفة الحضارة بين مالك بن نبي وروجيه غارودي، أطروحة مقدمة لنيل دكتوراه في الفلسفة، جامعة الجزائر2، الجزائر، 2006/2005.

فہرس

فهرس الموضوعات

الموضوع	
الأية الكريمة	
الإهداء	
الشكر	
مقدمة	أ
الفصل الأول **خلفيات مالك بن نبي الفكرية**	
المبحث الأول: مفهوم الحضارة ومفهوم فلسفة التاريخ	**06**
أ- مفهوم الحضارة	06
ب- مفهوم فلسفة التاريخ	12
المبحث الثاني: العوامل المؤثرة في توجه واهتمام بن نبي الحضاري	**17**
أ- المحفز العربي الإسلامي	17
ب- المحفز الغربي الاستعماري	21
المبحث الثالث: تفسيرات التاريخ الحضارية السابقة عن بن نبي (نماذج)	**26**
أ- ابن خلدون (التعاقب الدوري)	26
ب- شبنجلر (التفسير العضوي، البعد البيولوجي)	29
ت- ارنولد توينبي (التحدي والاستجابة)	31
الفصل الثاني **التفسير الحضاري للتاريخ عند مالك بن نبي**	
المبحث الأول: التاريخ والحتمية التاريخية	**36**
أ- مفهوم التاريخ	37
ب- الحتمية التاريخية	40
المبحث الثاني: طبيعة الدورة الحضارية في التاريخ وعناصرها	**48**

أ- طبيعة الدورة	48
ب- عناصرها	51
المبحث الثالث: أطوار الدورة الحضارية في التاريخ ومشكلاتها	**59**
أ- أطوار الحضارة	59
ب- مشكلاتها	63
الفصل الثالث **تطبيقات نظرية مالك بن نبي في فلسفة التاريخ**	
المبحث الأول: الحضارة الإسلامية.	**70**
أ- مراحل الحضارة الإسلامية.	71
ب- تطور المجتمع في نظر بن نبي.	73
المبحث الثاني: الحضارة المسيحية (الغربية)	**76**
أ- مراحل الحضارة (الغربية) المسيحية.	77
ب- المركزية العالمية للحضارة الغربية.	80
المبحث الثالث: مالك بن نبي في الميران	**82**
أ- تقويم بن نبي.	82
ب- نقد إطار الحضاري لابن نبي.	83
خاتمة	87
قائمة المصادر والمراجع	89
فهرس الموضوعات	93